كلية اللغة العربية بالزقازيق
دراسات في عصور الريادة
للأدب العربي

الحلقة الأولى

عن

العصر الجاهلي

للدكتور
محمد عبد المنعم العربي
أستاذ الأدب والنقد
في جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

-:-:-:-:-:-:-

مقدمة

أحمدك ربي أجمل الحمد على جزيل نعمائك ، وجليل آلائك وأصلي وأسلم على محمد عبدك ورسولك وخاتم أنبيائك

(وبعد) فان أدب (العصر الجاهلي) هو أدب الفطرة الغضة والنفس الصريحة ، أو الكلمة الصادقة في تعبيرها عن الحياة والبيئة والمجتمع .

وأدب (صدر الاسلام) هو أدب العقيدة السامية ، والقيم العالية والدعوة الطاهرة والفتوح الباهرة .

والعصران متجاوران -كما هو معلوم- وبينهما روابط متينة وصلات وثيقة ، من الزمن المتصل ، والبيئة الواحدة ، والنزاع النفسي العام ، ومن ثم فبين أدبيهما أوجه تشابه كثيرة ، وان اختلفا في النواحي التي تتصل بالعقيدة والمنهج الفكري والسلوكي .

وبحكم السبق التاريخي لهذين العصرين الأدبيين ، كانا رائدين لما تلاهما من عصور الأدب العربي - حتى عصرنا الحديث - في أغراض الأدب وفنونه ، في بنائه وتكوينه ، في ألفاظه وأساليبه في معانيه وأخيلته .

وهذه الريادة تجعل المصريين جديرين كل الجدارة بالدراسة الدائبة والبحث الجاد المتواصل ، في مناحي أدبهما الخصب الممتع ، والمناقشة الهادئة لكل ما أثير حول هذا الأدب ـ ولاسيما الجاهلي منه ـ من قضايا فكرية علمية وأدبية .

وهذه دراسة متواضعة عنهما ، عنيت فيها بتوضيح الحقائق وتنسيقها ، وعرض القضايا ومناقشتها ، مع الاستكثار ـ ما أمكن من النماذج الشعرية والنثرية ، إذ هي ـ في النهاية ـ لب الأدب وصميمه ، ومرجع الدارس وصديقه ، ودليله وسميره .

أقدمها الى قرائي الكرام معتذرا عن ايجاز دفعني اليه ضيق الوقت ، راجيا أن تكون تذكرة نافعة ، ومنطلقا الى آفاق أكثر سعة لي ولهم ان شاء الله .

سائلا المولى عز وجل فيضا من التوفيق ، ومددا من التيسير والتسديد ، عليه توكلت فنعم المولى ونعم النصير ..

ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ د . محمد عبد المنعم محمد عبد الكريم
يناير ١٩٨١ م

((الباب الأول))

(الفصل الأول)

الأدب وتاريخه : (أهمية دراستهما _ مدلول كل منهما)

إن دراسة (الأدب) بعامة ، من أجمل وأمتع الدراسات الإنسانية وأقربها إلى القلوب والعقول ، لأن الأدب (فن جميل) ، والنفس البشرية منذ كانت ميالة إلى الفنون الجميلة ، مشغوفة بها على مر القرون وتعاقب السنين و (تاريخ الأدب) فرع من الدراسات الأدبية المتعددة ، ودراسته من أهم الدراسات الأدبية نفعا ، وأشدها جذبا وتشويقا ، وأعظمها خطرا وأهمية ، وبخاصة للدارس المتخصص في علم اللغة العربية وآدابها ، وذلك لصلتها المباشرة بالأدب ، وتصويرها إياه في صورة كائن حي نابض بالحركة ، تجرى عليه وتعتوره شتى الظواهر من طفولة وشباب وغرارة [1] ونضج ، ورواج وكساد ، وقوة وضعف وصحة ومرض ، مسجلة كل أحواله ، معللة مختلف ظواهره ، رابطة إياه بشتى العوامل المؤثرة فيه ، فهي دراسة واسعة الآفاق فسيحة الأرجاء ، شديدة اللزوم بليغة الفائدة _ ومن هذا المنطلق في النظرة الواجبة للأدب ، ولتاريخه ينبغي لنا أن نتعرف على مدلول كل منهما .

أ - ونمهد للتعرف على (الأدب) بالتنبيه الى أنه من جهة الاقتدار على إبداعه - كشأى فن جميل - (موهبة) من الخالق جل وعلا ، تظهرها الممارسة والمعاناة ، واستعداد فطرى تصقله التجربة المستمرة ، وينضجه تعاطى نتاج الموهوبين السابقين ، فيثمر المهارة والبراعة .

والآن نسأل عن مدلول (الأدب) ، فنعرض أولا لمفهومه فى عصرنا الحديث ثم نلتفت الى الوراء لنعرف ما اذا كانت تعنى هذه الكلمة فى الأعصر السابقة وما مر بها من تطورات . المعنى الذى نفهمه اليوم من الأدب ، أنه : ذلك الفن الكلامى الجميل من الشعر والنثر الذى يصور به الأديب الطبيعة والحياة من خلال احساسه بهما ، تصويرا يحدث فى نفوس قارئيه أو سامعيه متعة ولذة فنية .

فأنت اذا قرأت قصيدة رائعة ، أو مقالة بارعة ، أو قصة ممتازة فانك تشعر بمتعة تشبه ما تحسه عند سماعك غناء شجيا ، أو موسيقى عذبة ، أو عند مشاهدتك رسما بديعا أو تمثالا متقنا ولقد تجاوز أثر الأدب مجرد اللذة الفنية الى مشاركة المتلقى للأديب فى عواطفه ومشاعره ، بل فى آرائه وأفكاره ، بل فى معتقداته واتجاهاته فى الحياة (1)

(١) ولا سيما فى الأدب الموضوعى كالقصة والمسرحية .

هذا هو مفهومنا الآن لكلمة أدب ، فهل كانت تؤدى هذا المفهوم فى العصور الماضية ؟ الحق أنها مرت بأطوار متعـــددة قبل أن تنتهى الى ذلك ، واليك عرضا موجزا لهذه الأطوار :

١ - ففى العصر الجاهلى استعملت الكلمة فى معنى (الدعـــوة للطعام) كما فى قول (طرفة بن العبد البكرى) يفتخـــر بأن قومه كرماء دعوتهم الى الطعام عامة لا خاصة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى .. لا ترى (الآدب) فينا ينتقـر.

وفى معنى (الدعوة الى الحق) كقول (أبى ذؤيب الهذلى) :

وكيف قتالى معشرا (يأدبونكم) .. على الحق الا تأشبوه بباطـــل ؟

ولعلك تلاحظ أن الداعى الى الطعام ، والداعى الى الحـــق ذو سلوك جميل ، وأنه لابد لكل منهما من أسلوب كلامى جميل فـــى دعوته ، وأليس الأسلوب الجميل داخلا فى مفهوم الأدب كما نعرفه ؟

ومن ذلك أيضا قول (الأعشى) : يفتخر بخلقه الحســـن :

جروا على (أدب) منى بلا نزق .. ولا إذا شمرت حرب بأغمـــار

فالخلق الحسن يستدعى قولا حسنا فى الغالـــب .

* * *

٢ - وفى صدر الاسلام استعملت كلمة (أدب) فى معـــــنى تهذيب النفس ، ورياضتها لاكتساب المحامد ، وفـــــى حسن مخاطبة كل قوم بما يناسبهم ، ومما أثر فى ذلك قـــول رسول الله عليه الصلاة والسلام :

" أدبنى ربى فأحسن تأديبى " ، وأيضا فى معـــــنى الدعوة الى اكتساب وتعلم أبواب الهداية والخلق القويـــم والعلم النافع فيما أثر كذلك من قول الرسول الكريم : " إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته " .

٣ - وفى العصر الأموى كان أكثر استعمالها فى التعليم ، فالمعلم مؤدب ، والمتعلم : متأدب بما يلقى على التلاميذ مـــــن ألوان المعرفـة من لغة وشعر وتاريخ وخطب وقصص وحديـــث وفقه .... أدب ، وفى أواخر ذلك العصر انفصلت (العلوم الشرعية) وبقى اطلاق الأدب على ماعداها .

٤ - وفى العصر العباسى الأول انفصلت عن مفهوم الأدب أيضـــا علوم اللغة من نحو وصرف ومتن لغة ، نظرا لنموها واتســـاع دراستها ، واقتصر مفهوم الأدب على الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وتفسير وأخبار وأنساب ، ونقد وتحليل وطرائف وقصص وحكم وأمثال وظهرت فيه كتب تحمل هذا الطابـــــع

مثل : الأدب الصغير (لابن المقفع) والبيان والتبين (للجاحظ) الشعر والشعراء (لابن قتيبة الدينوري) .

٥ — وفى العصر العباسى الثانى اتسع الكلام حول الشعر والشعراء كما اتسعت آفاق النثر وتطورت أساليبه ، وأخذ فريق من العلماء يبحثون عن أسرار البيان ودلائل الاعجاز يؤلفون فى ذلك حتى صار فنا مستقلا عن الأدب فى صورة (علوم البلاغة الثلاثة) وبهذا أصبح الأدب يدل على النتاج الجيد من الشعر والنثر وروايته ، مع ما يتصل به من تراجم الشعراء والكتاب ومعرفة أخبارهم وأحوالهم وما برزوا فيه . وهذا بالمعنى الخاص للأدب ، ووجد الى جانبه فى هذا العصر أيضا مفهوم للأدب (بالمعنى العام) وهو الأخذ من كل فن بطرف فالأديب هو من ألم بثقافة عصره ، وكانت ثقافة واسعة تشتمل على كثير من المعارف الانسانية من فلسفة وتاريخ وطب ورياضة وفلك ..... كما تشتمل على بعض الفنون الجميلة كالموسيقى والشطرنج ، وبعض ضروب الفروسية .

٦ — هذه هى أهم المعانى والاستعمالات التى مرت بكلمة أدب فيما قبل عصرنا الحديث .

* * *

ب – ونمهد للتعرف على (تاريخ الأدب) بالتنبيه الى أن النقاد قسموا الأدب الى قسمين : (إنشائى) و (وصفى) .

١ – فتعبير الأديب بالشعر أو النثر عن شعوره الداخلى وخواطره النفسية وانفعالاته نحو الحياة والطبيعة هو (الأدب الإنشائى) لأن الأديب ينشئه إنشاء ويبدعه إبداعا ، وهذا الأدب تصوير مباشر (للحياة والكون) من خلال وجدان الأديب فهو ممتزج بعاطفته ومشاعره الذاتيه ، معبر عن شخصيته ، مفصح عن مدى تأثره بمشاهد الطبيعة ، ناقل لهذا التأثر إلى الغير بقدر ما فى تصويره من حرارة وانفعال .

٢ – وعندما يتلقى الناس هذا الأدب الانشائى ، ويتأثرون به معجبين أو ساخطين فان فريقا من الأدباء لا يكتفى بهذا الشعور بالإعجاب والمشاركة ، أو السخط والمخالفة ، بل يحاول أن يشرك غيره من الناس فى ذلك ، فيضع هذا الأدب الإنشائى أمامه موضع البحث والتأمل ، ويمسك بقلمه فيسجل أسباب رضاه عنه أو سخطه عليه ، يظهر مواطن الحسن فى النص الأدبى ، ومواطن العيب والقبح ، بينما ينبرى فريق آخر من الأدباء للتأريخ لهذا الأدب الإنشائى من حيث عصره وحياة صاحبه والمؤثرات التى عملت فيه ، وكلا الفريقين (واصف) للأدب الذى انشأه الغير وهذا هو الأدب الوصفى)

ولعلك قد لاحظت استخلاصا من اتجاه الفريقين المشار اليهما أن الأدب الوصفى قسمان :

فعمل الفريق الأول هو ما اصطلح على تسميته (بالنقد الأدبى)

وعمل الفريق الثانى هو ما نسميه (تاريخ الأدب) ، واذ قد وصلنا الى (تاريخ الأدب) بعد ما بينا أنه فرع من الأدب الوصفى نوفى لك بما وعدناك به من تعريف واف له ، تأكيدا لأهميته وتوضيحا لمنزلته فى الدراسات الأدبية .

ولعلك قد لاحظت أيضا أن (الأدب الانشائى) بشعره ونثره يأتى أولا ، ويأتى (النقد الأدبى) تاليا له ومعقبا عليه ، ثم يجئ تاريخ الأدب بعد ذلك ، ليؤرخ للأدب - الذى هو ركن جليل من أركان ثقافة الأمة وحضارتها - وليصور حياة الأمة العقلية والنفسية من خلاله .

(فتاريخ الأدب) يتعرض بالبيان والتحليل لظواهر الأدب ، المختلفة فى عصر من العصور ، أو بيئة من البيئات أو طور من الأطوار من حيث الرفعة والنهضة أو الضعف والتأخر ، ويشرح العوامل التى أدت الى هذا أو ذاك ، أو الى شئ وسط بينهما ، ويدرس التطورات التى مرت بالشعر والنثر فى شتى النواحى ، ويعنى بما قد يجد من الظواهر الأدبية الغريبة ويعلل لها ، كذلك يترجم للأدباء من شعراء وخطباء ، وكتاب ونقاد ، ويعرض نماذج من انتاجهم ويعلق

عليه ويستخلص منه مختلف النتائج — فهو مرتبط بالتاريخ السياسي العام للأمة التي يؤرخ لأدبها ، وبالسيرة الخاصة للأدباء الذين يتعرض لهم ، وبالأحداث الكبرى والظروف البيئية والجغرافية والأوضاع الاجتماعية وهو بهذا يحتاج من المؤرخ الأدبي الى إلمام قوي متمكن بكل ذلك الى جانب ثقافة تمتاز بالسعة والاحاطة والشمول — وهذا الفرع (تاريخ الأدب) حديث العهد في الظهور وان كانت له أصول وركائز قديمة في أدبنا فقد ظهر بالمفهوم الذي وضحناه في أواخر القرن (الثالث عشر الهجري) التاسع عشر الميلادي ، وكانت عناصره ومسائله قبل ذلك مفرقة ومبثوثة في كتب اللغة والأدب والتاريخ وبخاصة الكتب الجامعة (كالأغاني للأصفهاني) و(العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي (ويتيمة الدهر) للثعالبي .... والكتب ، حتى جاء المستشرقون في الأعصر الأخيرة فجمعوها ونسقوها وبوبوها ، ومهدوا لها بمقدمات تاريخية تعين على فهمها وقسموا تاريخ الأدب الى عصور تتبع — العصور السياسية غالبا ، وأشهر وأوفى عمل قام به المستشرقون في هذا المجال هو ما نهض به المستشرق الألماني (بروكلمان) في كتابه الكبير (تاريخ الأدب العربي) والذي بدأ في نشره بالألمانية عام ١٨٩٨م وهو موسوعة شاملة لتاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث ويقع في خمسة أجزاء وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية الدكتور (عبد الحليم النجار) ومن أشهر المستشرقين الذين أسهموا من

بعده فى هذا المجال المستشرق (كارلو نالينو) صاحب كتاب (تاريخ الآداب العربية (ويحتوى على دراسات فى الشعر الجاهلى والشعر الاسلامى والشعر الأموى وعلى دراسات فى النثر فى تلك العصور وعُنِىَ بأشعار الفتوح وشعر المشركين فى صدر الاسلام كما عُنى بالشعر السياسى وشعر الغزل والشعر القصصى اليمنى وغير ذلك وقد حذا حذو المشتشرقين فى هذا النسق من التأليف مؤرخو الأدب من العرب المحدثين ومن أشهرهم : (مصطفى صادق الرافعى) ، (جرجى زيدان) ، (طه حسين) ، (حفنى ناصف) (أحمد الاسكندرى) ، (محمود مصطفى) ، (السباعى بيومى) وغيرهم كثير ، وأهم العصور التى قسم إليها هؤلاء المؤ لفون تاريخ الأدب العربى :

١ - العصر الجاهلى ويمتد قرنا ونصف قرن قبل الاسلام على وجه التقريب وينتهى بظهور الاسلام (١٥٠ ق س - ١٣ ق هـ) (١) (٤٦٠ - ٦١٠) م

٢ - عصر صدر الاسلام : من البعثة النبوية الى آخر عهد الخلفاء الراشدين عام ٤١ هـ ٠

٣ - العصر الأموى من ٤١ هـ - ١٣٢ هـ ومعظم مؤرخى الأدب يضمون عصرى صدر الاسلام وبنى أمية فى عصر واحد ويسمونهما معا (العصر الاسلامى) ٠

---

(١) ق ٠ س : قبل الاسلام ، ق ٠ هـ : قبل الهجرة ٠

٤ — العصر العباسي الأول ١٣٢ هـ — ٣٣٤ هـ
٥ — العصر العباسي الثاني ٣٣٤ هـ — ٦٥٦ هـ
٦ — العصر المملوكي ٦٥٦ — ٩٢٣ هـ
٧ — العصر العثماني ٩٢٣ هـ — ١٢٢٠هـ
٨ — العصر الحديث ١٢٢٠هـ إلى اليوم

وكما أرخ بعضهم الأدب في العصور الزمنية المختلفة أرخ له البعض في (البيئات المكانية الجغرافية) ، كالأدب الأندلسي الذي ارتبط باقليم معين وهو بلاد الأندلس وأرخ البعض له مرتبطا ببعض الظواهر الاجتماعية كأدب المهاجر الذي ارتبط بهجرة طائفة من العرب إلى القارتين الأمريكيتين في مطلع العصر الحديث وأرخ البعض للأدب في دوائر أضيق من خلال علم من أعلامه في الشعر أو النثر بالترجمة الضافية له أساسا ولعصره وبيئته تبعا كالدراسات التي ظهرت حول كل من (المتنبي) و(البحتري) و(أبي تمام) و(ابن الرومي و (ابن المعتز) و (بديع الزمان الهمذاني) و(الحريري) و(الجاحظ) و(ابن المقفع) و(الطغرائي) و(ابن العميد) ... وغيرهم من أعلام الشعراء ، ونوابغ الكتاب في شتى العصور وأحيانا يكون التاريخ الأدبي مرتبطا (بفن من الفنون الأدبية) كالحماسة والغزل والوصف في الشعر ، وكالرسائل والمقامات والخطابة في النثر .

■ ■ ■

((الفصـــل الثانـــــى))

أمـــة العــــرب

أصلهـــا - أهـم شعوبهـــا وقبائلهـــا

العرب قوم يسكنون شبه الجزيرة المنسوب اليهم فى الركـــن الجنوبى الغربى من قارة (آسيا) ، وهم من الشعوب الساميـة التى ترجع فى أصلها الى (سام) وهو أكبر ثلاثة اخوة من أبنـــاء نبى الله (نوح) عليه السلام الذى يعد الأب الثانى للبشر بعـــد أبيها الأول (آدم) عليه الســـلام ٠

والأخوان الآخران هما : (حام) و(يافث) ومنهم تفرعت الأجناس البشرية ،وفى القرآن الكريم) إشارة الى ذلك ، قال اللـــه تعالى فى شأن (نوح) : "وجعلنا ذريته هم الباقين" (ســـورة الصافات : آية :٧٧)٠

أما (أبناء (حام) وهم الحاميون أو الجنس الحامى فقـــد سكنوا القارة الإفريقية ومنهم قبائل (الزنوج) وقبائل (البربر) ٠

وأما أبناء (يافث) فقد غلب عليهم اسم (الآريين) نِسْبــةً الى (آرين يافث) فقد حلوا فى أواسط (آسيا) فى بلاد الهنـــد

وفارس والافغان وانتقلت بعض قبائلهم إلى القارة الأوربية فعمروها منهم قبائل (الإغريق) و(الرومان) و (الجرمان) [1]

وأما أبناء (سام) أو الساميون فقد سكنوا غرب القارة الآسيوية ويرجح المؤرخون [2] أن موطنهم الأساسي هو شبه الجزيرة العربية وأن جماعات منهم نزحت على فترات الى الشمال والشرق فى سوريا والعراق وكونت هناك دولا وحضارات .

وبذلك كان هذا الموطن الأول للساميين مصدرا لعدة هجرات بشرية كان لها أثرها فى التاريخ القديم ، وكان الباعث على هذه الهجرات غالبا قسوة الحياة وشظف العيش فى شبه الجزيرة والبحث عن حياة أرغد خارجها ، حيث توجد الأنهار ولهذا اتجه بعض هذه الهجرات الى الشام وبعضها الى العراق ، فمن تلك الجماعات السامية المهاجرة الى الشام (العموريون) الذين كونوا دولة وحضارة فى الأجزاء الشمالية من سورية ثم انتشروا منها الى الغرب والوسط والجنوب ،كما بسطوا نفوذهم على جانب من العراق ومنها :

---

(١) راجع (قصة الجنس البشرى) تأليف الدكتور (هندريك فان لون) ترجمة الاستاذ بن ابراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى ط دار الشعب ١٩٥٧ .

(٢) راجع (تاريخ مصر والعالم القديم) للدكتور جمال مختار مطبعة عاطف ١٩٧٦م .

(الكنعانيّون) الذين سكنوا جنوب سورية (فلسطين) ، وانتشر فريق منهم على الساحل الشامي كله من حدود الأناضول شمالا إلى حدود مصر جنوبا وعرفوا باسم (الفينيقيين) الذين كان لهم نشاط بحرى وتجارى واسع شمل حوض البحر الأبيض المتوسط كله ، ونفوذ سياسى وحربى وصل إلى أوربا .

ومنها : (الآراميون) فى الشام ، حيث قامت لهم دولة عظيمة حول (دمشق) ، وفى حوض (نهر الفرات) حيث كان مركزهم الكبير مدينة (حوران) ومن تلك الجماعات الساميه أيضا (الانباط) فى شرقى الأردن وجزء من فلسطين وسيناء وكانت عاصمتهم (بطرة)أو الرقيم ،واتسع نفوذهم حتى وصل الى مابين دمشق والعقبة . أما الجماعات السامية التى اتجهت الى العراق فمنها (البابليون)الذين تفرعوا عن (العموريين) السابق ذكرهم وقد نسبوا الى مدينتهم العظيمة (بابل) على نهر الفرات فى جنوب العراق وقد برعوا فى فن العمارة وأسسوا حضارة رائعة .

ومنها (الآشوريون) الذين أقاموا دولتهم فى شمال العراق وكانت عاصمتهم (نينوى) ثم استولوا على بقية العراق ووسعوا فتوحاتهم حتى وصلت (مصر) .

ومنها (الكلدانيون) الذين جددوا عهد الدولة (البابلية) وأشهر ملوكهم (بنوخذ نصر الثانى)أو (بختنصر) ٦٠٥ ـ ٥٣٣ ق ٠م) .

وهو الذى قضى على دولة اليهود بفلسطين ودمر عاصمتهم تماما ، وقد برع الكلدانيون فى (علم الفلك) (١) .

أما من بقى من تلك الأمة السامية فى شبه الجزيرة ، فهم العرب الذين نؤرخ لهم ، وهؤلاء العرب قسمان : بائدة وباقية :

١ - (فالعرب البائدة) : هم العرب الأقدمون الذين بادوا وانقرضوا قبل الاسلام بأزمان متطاولة ، ومنها قبيلتا (عاد) و (ثمود) اللتان أهلكتا بتكذيبهما لرسل الله ، وورد ذكرهما فى القرآن الكريم ، ومنها قبائل (العماليق) الذين يقال ان منهم (الهكسوس) الذين تغلبوا على مصر أيام (الفراعنة) وحكموها حقبة من الزمان ومنهما قبيلتا (طسم) وأجديس فى اقليم (اليمامة) .

٢ - و (العرب الباقية) هى تلك القبائل التى سلمت من الهلاك والاستئصال وبقيت ذراريها حتى مجىء الاسلام .

والعرب الباقية شعبتان كبيرتان ، قحطانية وعدنانية .

* (فالقحطانية) وتسمى أيضا العرباء و (العاربة) (٢) :

(واليمانية) هم أبناء يعرب بن قحطان) وهم سكان جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن وملحقاتها) ، وهم أصل وأعرق من نطق باللغة العربية .

---

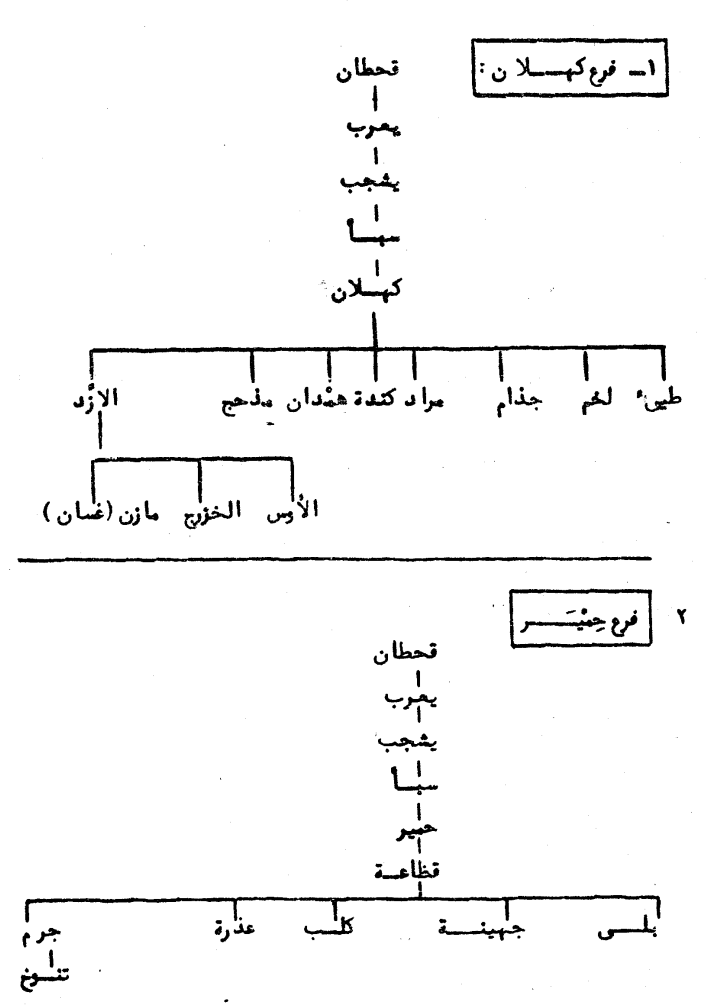
(١) فى القاموس (٢) عرب عاربة وعرباء : صرحاء ، ومتعربة ومستعربة دخلاء .

(والعدانية) وهم أبناء (عدنان) الذى يتصل نسبهُ إلى (اسماعيل بن ابراهيم) عليهما السلام وهم سكان شمال شبه الجزيرة العربية (الحجاز وما يليه) ، ويسمون أيضا المتعربة (والمستعربة) لأنَّ جدهم (اسماعيل) لم يكن فى الأصل عربيا ، وانما استعرب بسبب هجرة أبيه به وبأمه (هاجر) المصرية الى (مكة) كما ورد فى القصة التى ذكرها القرآن الكريم عن ابراهيم عليه السلام : " ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم " سورة ابراهيم اية ٣٧ : فنشأ (اسماعيل) وتربى فى الحجاز وشب بها وتزوج من قبيلة (جرهم) اليمنية ، فأخذ عنهم العربية وصارت لغته ولغة ذريته من بعده ، ومن تلك الذرية قبيلة (قريش) ذات الشأن الكبير فى تاريخ العرب .

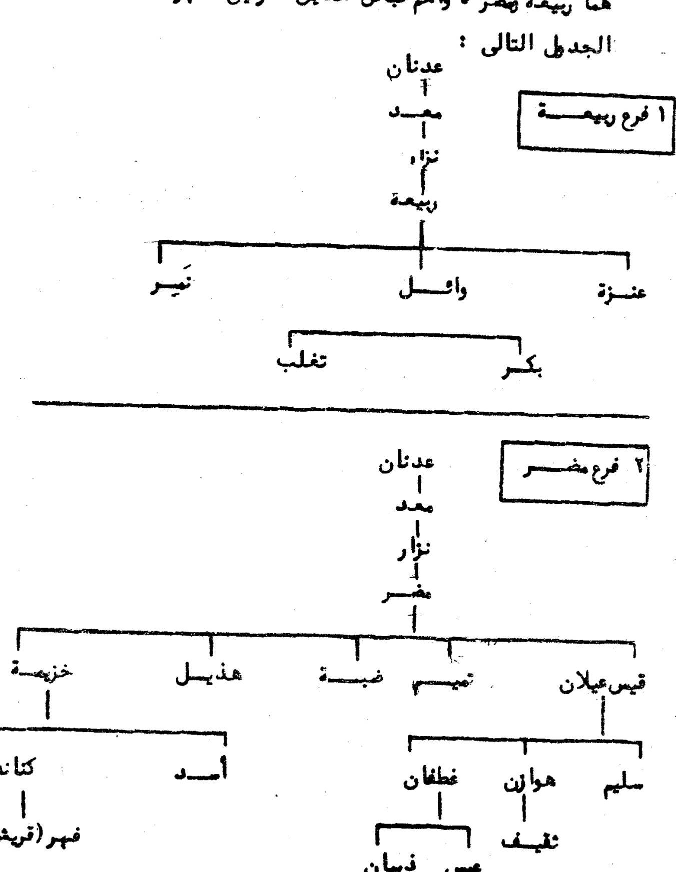
وإذْ قد عرفت الأصول الكبرى لأمة العرب وانتهائها الى الشعبين القحطانى والعدنانى فاليك موجزا لأهم ما تفرع عنهما من فروع وهى (القبائل) :

أولا : (الشعب القحطانى) وقبائله ترجع الى فرعين رئيسين هما : (كهلان) و (حِمْيَر) كما يتبين لك فى الجدول التالى :

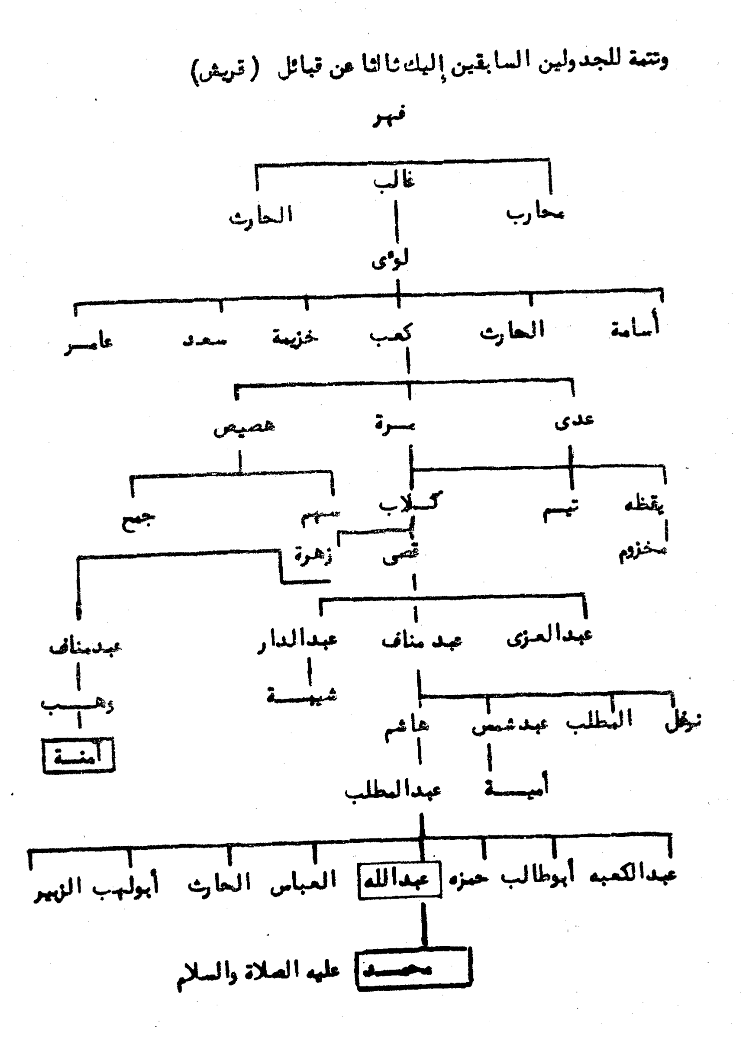
۞


١ـ فرع كهـــلان :
قحطان
يعرب
يشجب
سبـــأ
كهـــلان
طيئ
لخم
جذام
مراد
كندة
همْدان
مذحج
الأزْد
الأوس
الخزرج
مازن (غسان)
٢
فرع حِمْيَـــــر
قحطان
يعرب
يشجب
سبـــأ
حمير
قضاعـــة
بلـــى
جهينـــة
كلـــب
عذرة
جرم
تنـــوخ

ثانيا : الشعب العدنانى ، وقبائله ترجع إلى فرعين رئيسيين كذلك هما ربيعة ومضر ، وأهم قبائل هذين الفرعين تظهر لك فى الجدول التالى :



وتتمة للجدولين السابقين إليك ثالثا عن قبائل (قريش)



((الفصل الثالث))

" الوطن الجغرافى للعرب "

حدوده ـ أقسامه ـ طبيعته

بلاد العرب هى تلك الرقعة الصحراوية الواسعة المسماة بشبه الجزيرة العربية ، وانما سميت كذلك لأن الماء يحدها من ثلاث جهات فقط هى الشرق والجنوب والغرب ـ والتى تقع فى الركن الجنوبى الغربى من قارة آسيا ، فتحتل بذلك موقعا ممتازا بين القارات يتوسط العالم تقريبا . يحدها من الشرق الخليج الفارسى وخليج عمان ، ومن الغرب بحر القلزم (البحر الأحمر) ومن الجنوب المحيط الهندى وخليج (عدن) أما من الشمال فتحدها أرض العراق وأرض الشام .

ونظرا لاتساع رقعة شبة الجزيرة العربية طولا وعرضا إذ تبلغ مساحتها قرابة (ثلاثة ملايين كيلو متر مربع) أى قدر مساحة القطر المصرى ثلاث مرات ، واختلاف تضاريسها مابين جبال وهضاب ، وسهول ووديان ، انقسمت الى عدة أقسام طبيعية أهمها :

١ - اقليم الحجاز : في الثلث الغربي من شبه الجزيرة وهو جبلي مرتفع تتخلله بعض الوديان ، وتلحق به (تهامة) وهي منخفضة ، وسمى حجازا لأن سلسلة جباله وتعرف باسم (جبال السراة) تمتد من اليمن جنوبا حتى تصل الى أطراف الشام شمالا فتحجز بين (نجد) في الشرق، و(تهامة) في الغرب على ساحل البحر الأحمر ويغلب على اقليم الحجاز وتهامة الجدب لكثرة صخوره ورماله ، وقلة أمطاره التي تنبت العشب والكلأ لترعاه الماشية ، وتغشاه السيول أحيانا ، نازلة من أعالي الجبال الى الوديان والمنخفضات متجهة الى البحر تاركة وراءها بعض الغدران ،فيردها السكان وينتفعون بمائها القليل .

واقليم الحجاز شديد الحرارة ، وأشهر مدنه : (مكة المكرمة) وتتوسط الحجاز ، وتحيط بها الجبال الشاهقة ، وتدعى (أم القرى وهي مثوى قريش) وبها (البيت العتيق) : الكعبة المشرفة ، ومولد رسول الله (محمد بن عبد الله) عليه الصلاة والسلام ومشرق بعثته ، ومبدأ دعوته الى الاسلام .

(يثرب) أو المدينة)المنورة ، وهي دار هجرة النبي ومسكن أنصاره من الأوس والخزرج ،وبها توفى وفيها قبره الشريف وقبور كثير من (الصحابة) رضوان الله عليهم ، وتقع (المدينة) في وسط الطريق

بين مكة والشام ، فى واد فسيح ، وفيها كثير من الآبـــــار للسقيا ، ولذا اشتهرت بنخيلها الكثير وتمرها الجيـد ويقع بالقرب منها الى الشمال (جبل أحد) المعروف والى الجنوب الشرقــــى ماء وودای (بدر) الذى وقعت فيه أول غزوة كبرى فى الإسلام .

(الطائف) وتقع إلى الشرق من مكة قريبا منها فى واد مرتفع ولذلك كانت باردة الهواء مع خصوبة أرضها ، ووفرة مياهها فاشتهرت بفاكهتها وأشجارها وأعنابها .

ومن مدن الحجاز الساحلية على البحر الأحمر (جُدَّة) التى تواجه مكة (وينبع) التى تواجه المدينــة .

٢ - اقليم نجد : ويتوسط شبه الجزيرة ، وهو اقليم مرتفع واســع الأرجاء ، جيد الهواء ، طيب الريح ، تكثر به الــــدارات (الواحات) الخصبة التربة ، ومنابع المياه ، وتنتشر فيـــه الأشجار المطرية ، والأزهار الفواحة وتزينه المناظـــــر الطبيعية الخلابة ، ولذلك تغنى الشعراء قديما بجمـــال بلاد نجد ، وحسن مناظرها وطيب نسيمها ، وأشهر جبـــال نجد (أجأ) و (سلمى) جبلا قبيلة طيء ، ومن أشهـــر قبائله غير طيء : كندة ، وتميم ، وغطفان وقيس عيلان ، وبكـــر وتغلب .

■ ■ ■

٣ - اليمـــن : ويقع فى الطرف الجنوبى الغربى لشبة الجزيـــرة فهو الى الجنوب من الحجاز ونجد والى الغرب من (عمان) ولـــه ساحل غربى على البحر الأحمر وساحل جنوبى على خليج عـــدن وبحر الهند (المحيط الهندى) وجزؤه الغربى مرتفع كثير الامطار ويعد أخصب بلاد العرب على الاطلاق ، فهو كثير الخيرات والزروع والثمار ولذلك نشأت فيـــه حضارة قديمة أشار اليها القرآن الكريم فى حديثه عن مملكة (سبأ) وأهم مدنه (صنعاء) ، و(مأرب) و(نجران) - أما جزء اليمن الشرقى فيسمى (حضرمـــوت) وهو ساحلى مجدب ويشتغل أهله بالملاحة والتجارة ويتصفـــون بالذكاء والنشاط والمهارة ، وشمالى حضرموت صحراء الأحقـــاف التى كانت مسكنا لقبيلة (عاد) البائدة والتى تحدث القـــرآن الكريم عنها أيضا .

٤ - ويتصل بالأحقاف شمالا جزء صحراوى كبيـــر ، قاحل شديـــد الجدب ، لا أثر فيه للحياة يكون مع صحراء الأحقاف ما يسمـــى بـ (الربع الخالى) .

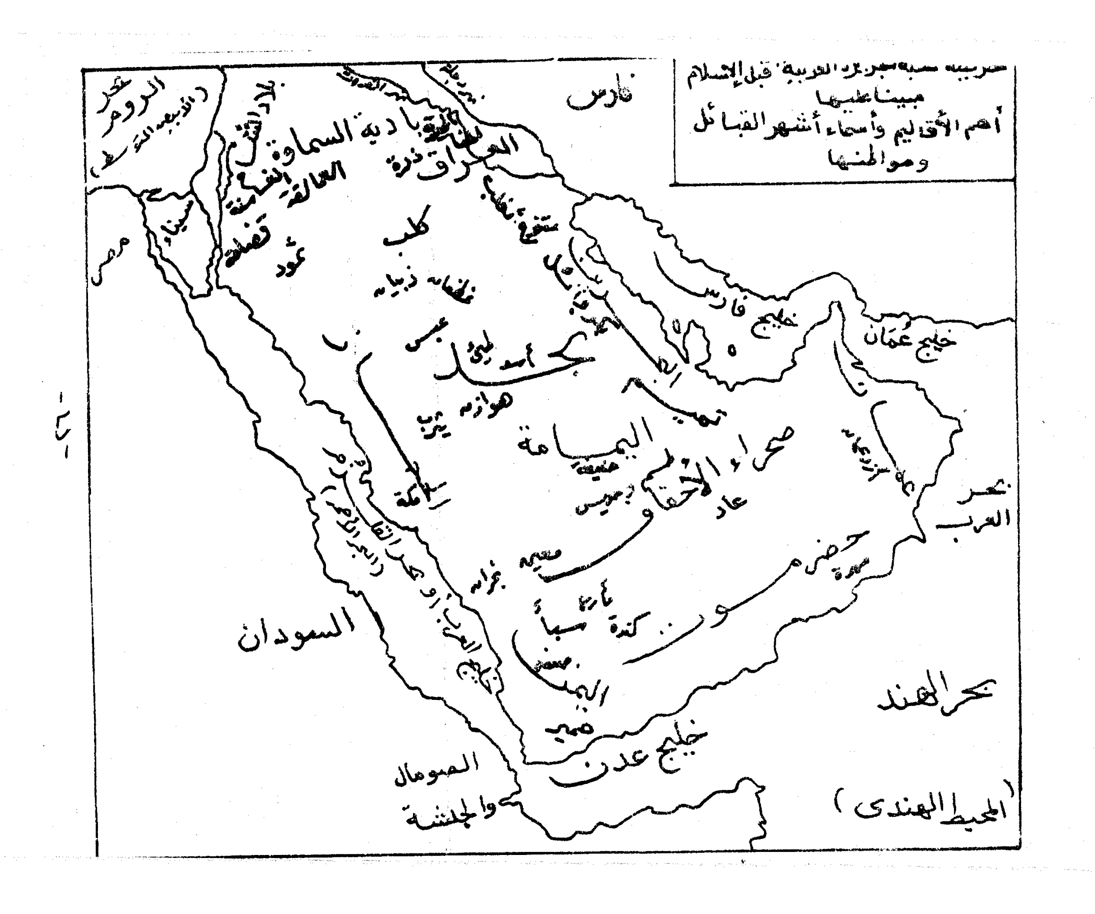
٥ - ويعلو الربع الخالى من الشمال مائلا الى الشرق واد خصيب يسمـــى (اليمامة) وهو مسكن (بنى حنيفة) واليه تنسب (زرقـــاء اليمامة) التى اشتهرت بجودة بصرها .

* *

٦ - عمـــان : وهو اقليم جبلى ساحلى يقع فى الزاويـــة الجنوبية الشرقية لشبة الجزيرة مطلا على المحيط الهنـــدى من الجنوب وعلى بحر العرب أو خليج عمان المؤدى الـــى الخليج الفارسى - من جهة الشرق ، وقد برع أهله فى الملاحـة وصيد اللؤلؤ وجوه شديد الحرارة وأشهر مدنه (مسقـــط) و(صحار) .

٧ - البحرين : قطر ساحلى فى أقصى شبه الجزيرة شرقا يقع علـــى الخليج الفارسى شمال عمان ويشمل ما نسميه الآن بدولـــة الامارات العربية ومن مدنه (البحرين و(قطر) و(الاحسـاء) ويشتغل أهله بالتجارة والصيـــد .

٨ - باديـة السمـاوة : وهى أقصى شمال شبة الجزيرة بيـــن حدود كل من العراق شرقا والشام غربا تقع هذه البادية ، وهـى بقعة صحراوية عديدة الاقفار عديمة الماء ، خالية من السكـا ن يتجنبها المسافرون خشية الهلاك عطشا - وهى التى قطعهـا سيف الله (خالد بن الوليد) مع عشرة آلاف من جنده ، فـى سرعة خاطفة فى انتقاله من العراق الى الشام عام ١٣ هـ (ليكـون مددا للمسلمين هناك بأمر خليفة رسول الله (أبى بكر الصديـق) رضى الله عنه ، فيما يشبه المعجزة الحربية (أنظر الخريطة) .

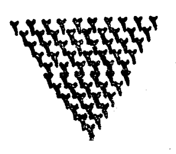

خريطة شبه جزيرة العربية قبل الإسلام
مبينا عليها
أهم الأقاليم وأسماء أشهر القبائل
ومواطنها
فارس
خليج فارس
خليج عمان
بحر العرب
بحر الهند
(المحيط الهندى)
خليج عدن
الصومال
والحبشة
السودان
مصر
سيناء
بحر الروم
(الأبيض المتوسط)
بادية السماوة
العراق
كلب
ثمود
نجد
هوازن
اليمامة
صحراء الأحقاف
عاد
حضرموت
كندة
سبأ
اليمن

المناخ وحياة السكان :

تبين لك مما سبق من الحديث عن أهم اجزاء شبه الجزيرة العربية أن الصفة الصحراوية والجبلية تغلب عليها ، وأن الخصب والزرع قليل فيها ، وأنها خالية تماما من الأنهار ، وأن كل اعتمادها على المطر ، — وهو قليل فى معظم أجزائها — بما يخلفه من غدران وأودية تسيل أحيانا بالماء فينبت حولها العشب الذى ترعاه الماشية وتجف أحيانا أخرى ، فيعز الكلأ وتجف الضروع ، الى جانب قليل من الآبار والعيون المتناثرة التى تنبت حولها بعض المزروعات الضئيلة فغالبية السكان تعانى من شظف العيش وقسوة الحياة ترحل من مكان الى مكان طلبا للماء ، وانتجاعا للغيث وبحثا عن المرعى ، لا تقيم فى منزل الا ريثما تغادره بعد قليل لا تستريح الى دار ، ولا تنعم بالتوطن والاستقرار ، (فصفة البداوة) غالبة على أهل شبه الجزيرة ، يسكنون الخيام ، ويحترفون الرعى مع شئ من الصيد والتجارة ، وهم بمنأى عن الحضارة إلا ما كان فى الأطراف كمملكة (اليمن) فى الجنوب ومملكة (الحيرة فى الشرق على حدود العراق ومملكة (بصرى) فى الشمال الغربى على حدود الشام ، والا ما كان من بعض التحضر فى المدن الداخلية (كمكة ، و يثرب) و (الطائف) .

ولغلبة الطابع الصحراوى الجاف على شبه الجزيرة ، فجوها فى معظم الاجزاء وأكثر الفصول قارى شديد الحرارة نهارا لكنه بالغ

القســوة فى حرارته صيفا ، وبرود الليل فيكون قارسا فى الشتاء ، ولا ينعم العرب بجو لطيف الا فى فصل الربيع .



(الفصـــل الرابـــــــــع)

اللغة العربيـة - أصلها نشأتها ،أهم فروعها ولهجاتهـــــــــــا

[مميزاتها وسر بقائها - توحدها في لغة قريش/وأسباب هــــذا التوحد] العرب من جهة الأصل - قوم ساميون كما قدمنا لك ، فلغتهـم احدى اللغات السامية ، وهي اللغات التي تفرعت عن لغة الجد الأكبـر للساميين (سام بن نوح) ونعني بها (السامية الأولى) ، وهــــي لغة مجهولة بادت ، ولكن عرفت بناتها ومنهن بل في مقدمتهن (اللغة العربية) لغة سكان شبه الجزيرة العربية .

أما أخوات العربية الساميات ، فمنها (الكنعانية) لغـــــة أهل فلسطين الأقدمين و(الفينقية) لغة أهل سواحل الشــــام (السورية واللبنانية والفلسطينية) وقد بادتا ، و(العبرية) لغــــة الطارئين من بني إسرائيل القدماء على فلسطين وقد بادت كذلـــــك ولكن يحاول اليهود إحياءها الآن لأغراض سياسية و(الآرامية) ، و (البابلية) و(الكلدانية) (١) في نواحي العراق والشام - على ما مــر بك من نبأ دولها في إيجاز - وكلها بادت من قديم ولم يبق من بعضهـــا الا آثار مكتوبة على (البردي) أو منقوشة على الأحجار يرجع إليهـــا

(١) وتفرعت عنها (السريانية) .

العلماء والباحثون المتخصصون كما هو الشأن فى اللغة الهيروغليفية) لغــة قدماء المصريين .

أما اللغة (السامية) الوحيدة الحية المتداولة الى اليوم فهــى اللغة العربية ، أعرق اللغات الحية سامية وغير سامية (١) وأصلهـــــا وأبقاها على مر الزمان وتوالى الخطوب ، حيث يتكلم بها الآن قرابــة (مائة مليون) من البشر هم العرب المحدثون ، يؤازرهم فى حبهـــا ودعمها زهاء (ألف مليون) مسلم .

وانما نسبــت هذه المجموعة من اللغات الى (السامية) لأمرين همـــــا :

(١) أن الشعوب التى نطقت بها شعوب سامية الأصل كما قدمنـــا

(٢) ماوجده علماء اللغات من تشابه كبير فى الخصائص اللغويـــــة لهذه المجموعة ، ومن ذلك :

أ - زيادة عدد حروفها عن حروف مجموعة اللغات الآريـــة واشتراكها فى حروف تكاد تكون خاصة بها وغير موجــودة فى غيرها من اللغات الآرية والحامية ، كالحاء والعيـــن والصاد والطاء .

ب - اشتراكها فى بعض الخواص كعلامات التأنيث وطريقة اتصال الضمائر بالأفعال والأسماء .

جـ - اقتصارها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها فلايردفون

الحرف بحرف آخر يدل على الفتحة أو الضمة او الكسرة .

د - اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحـــدة .

هـ - وجود كلمات كثيرة بمعنى واحد مع اتفاق اللفظ أو الاختلاف في حرف واحد وهو اختلاف يسير ، كسلام وشلوم في العربية والعبرية ، وأنف وعنب فهما في السريانية بحذف النون ومثل التنوين فهو في العربية نون وفي البابلية ميم .. الخ .

ومما لا شك فيه ان هناك أسبابا وراء بقاء اللغة العربية دون أخواتها الساميات وأن خلودها وحفظها من الضياع والانقراض يرجع الى تلك الأسباب ومن أهمها :

١ - اعتزال العرب القدماء بلغتهم العربية في داخل شبـــه جزيرتهم وعدم اختلاطهم بغيرهم من الأمم والشعوب فسلمت من التغيير كما أنه لم يطرأ عليها من الغزاة الأجانب مـــن يفرض لغته عليها أويزاحمها في عرينها ، أو يقضي عليها .

٢ - سعة العربية وغناها بالمفردات والحروف وكثرة المترادفــات فيها .

٣ - عذوبتها في النطق وموسيقية ألفاظها وما أوتيت من جمــال التعبير فإذا ضممت الى ذلك نزول القرآن الكريم بها وماضمن لها من وحدة وقوة وعزة أدركت سر خلودها وسبـــب صمودها إلى ماشاء اللـه .

نشأتهـــــا :

هناك سؤال طرحه الباحثون فى نشأة اللغات نعرض له كتمهيد لموضوعنا وهو :

هل اللغة (تَوْقِيفِيَّة) أى اكتسبها الإنسان عن طريق وحــــى من الله تعالى ؟ أو هى (مُوَاضَعَة) أى وضعها البشر باتفـــــاق واصطلاح ارتضوه ؟ فيما بينهـم ؟ .

وفى الاجابة عن هذا السؤال انقسم العلماء فريقين قالوا ان الله تعالى أوحى بها الى آدم أبى البشر وعنه أخذها أولاده ثم تفرعـــت بعد ذلك . واحتجوا بقول الله عز وجل : " وعلم آدم الأسماء كلهـــا " (سورة البقرة آية : ٣١) .

ولكن الآية ليست دليلا قاطعا فى ذلك لاحتمال أن تكون الاسماء المرادة فى الآية : اسماء الملائكة فحسب ،ويؤيد ذلك فى الآية التاليـة : "قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم " (فلما أنبأهم باسمائهم ..) والدليل متى تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

وذهب الأكثرون من العلماء الى أن اللغة تواضع واصطلاح أقــدر الله الانسان عليه - تميزا له عن الحيوان الاعجم الذى يعبر عـــــن أحاسيسه بأصوات محدودة لا يتعداها - وهذه القدرة التى حبا اللــــه بها الانسان هى المشار اليها بقوله تعالى : " خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ " .

وسورة الرحمن آتيها ٣ ، ٤) أى علمه الافصاح عما فى ضميــــرة بكلام مرتب حسن [1] وذلك بتيسير النطق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعهــا من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجهــا [2]

وهناك سؤال آخر يطرحه من قالوا بأن اللغة مواضعة واصطلاح وهو هل دلالة الألفاظ على معانيها (ذاتية) ناشئة عــــن محاكاة الطبيعة ؟ أو أنها (مرتجلة) ابتكرها الانسان وعــم استعمالها فثبتت واستقرت ولو لم يكن بين اللفظ ومعناه مناسبة ؟ .

قال بالرأى الأول قوم واستدلوا على ذلك بأسماء الأصـــوات المحكية عن الطبيعة والحياة كالشخير للنائم والقهقة والنحنحـــة وفرقعة الأصابع والزفير للانسان ، والزئير للأسد والصهيل والحمحمة للفرس والنهيق للحمار ، والعواء للذئب ، والنقيق للضفدع وطنيـــن الذباب وشقشقة العصفور وفحيح الحية وحفيف أوراق الشجـــر وخرير الماء ، وقصيف الرعد وأزيز القدر وقعقعة السلاح وصليـــل السيف ورنين المعدن ومثل كلمات الدّق والدبّ ، والمصّ والـــرش والبقبقة (صوت امتلاء الجرة) ومثل ذلك كثير فى اللغة العربيـــة يجده من يتتبعه فى مظانه [3] .

---

(١) راجع (المصحف المفسر) للمرحوم محمد فريد وجدى عنـــه تفسير سورة الرحمن .

(٢) وراجع تفسير القرآن العظيم للعلامة ابن كثير عن تفسير ســـورة الرحمن .

(٣) راجع فقه اللغة للثعالبى .

وقال بالرأى الثانى قوم لا ينكرون المحاكاة والمناسبة فى بعض اللغة وهو البعض الأقل وذلك يكاد يكون قاصرا على المحسوسات[1]

ويقرون ان غالب مفردات اللغة مبنية على الارتجال والابتكار فانك لو تتبعت معظم الكلمات لم تجد مناسبة بين لفظها ومعناها فأين المناسبة مثلا بين ألفاظ : رجل ـ امرأة ـ علم ـ جهل ـ كرسى سقف ـ نار ـ ظلمة وردة ـ سمكة وبين معانيها ؟
فالارتجال والابتكار ، ثم العموم وشيوع الاستعمال هو المعول عليه فى اللغة ، والقدرة عليهما من خصائص الانسان ومواهبه التى حباه الله اياها وفضله بها على سائر مخلوقاته .

وبعد هذا التمهيد الذى نرجو أن يكون ذا فائدة لك نعود الى اللغة العربية سائلين عن نشأتها ، فنقول (بوجه عام) : لقد تفرعت لغات البشر كلها عن لغة واحدة ، هى الأم الكبرى ، وهى لغة آدم عليه السلام وهى اللغة التى توارثها عنه أولاده ، ولما كثرت ذرية آدم وتفرقوا فى الأرض واختلفت بيئاتهم الجغرافية وظروفهم المعيشية ، وأحوالهم الاجتماعية تفرعت عن لغتهم الاصلية لغات ثم تنوعت بارتجال كلمات جديدة للوفاء بمطالب حياتهم الجديدة ، واستمر التفرع والتنوع باستمرار الهجرات

---

(١) راجع فقه اللغة للمرحوم الدكتور (ابراهيم نجا) مطبعة الأزهر ١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٢ .

والانتشار فى الأرض وتباعد الأجناس البشرية بعضها عن بعض وارتقاء المجتمعات الانسانية فى سلم الحضارة وميادين العلم والثقافة ولعلك لا تعجب اذا علمت أن عدد لغات أهل الأرض اليوم يتجاوز المئات إلى الآلاف !! وكيف تعجب وقد جعل الله تعالى هذه الظاهرة من آيات قدرته ودلائل عظمته ؟ حين قال سبحانه : " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين " (سورة الروم : آية ٢٢) .

ثم نقول (بوجه خاص) ان اللغة العربية ـ كما قررنا سابقا ـ فرع ناضر من فروع اللغة (السامية القديمة) بل إنه أنضر وأقوى وأخلد فروعها على الاطلاق بدليل اندثار الفروع الأخرى وبقائه وسقوطها وصموده .

ولكن اللغة العربية كغيرها من اللغات ، قد جرت على سنة الله تعالى فى المخلوقات من المرور بأطوار عدة ، ومراحل متعاقبة وظروف كثيرة فى أزمنة طويلة تدرجت فيها ـ كما يتدرج الكائن الحى ـ من الطفولة إلى الشباب ومن الضعف الى القوة ، ومن الحداثة إلى النضج والاكتمال ، ومن الضيق الى السعة والانتشار .

وطفولة اللغة العربية موغلة فى القدم ، ضاربة فى مجاهل التاريخ بحيث لم يصلنا من أخبارها شئ ، ولكن الذى وصلنا منها هو نتاج مراحل النضج والسعة ، والقوة والكثرة ، والعظمة والازدهار انها (لغة قريش) التى توحدت فيها لغات العرب جميعا

وانصهرت فى لهجتها لهجاتهم كلهـــا .

ان الحفريات فى أنحاء شبة الجزيرة الواسعة ، ومواطنها التاريخية المتعددة والتنقيب عن الآثار المطمورة تحت رمالها الشاسعة ، ومــا يمكن أن يظهره من نقوش وكتابات عربية عتيقة على حجر أو شجـــر أو جلود أنعام أو أوراق بردى ، لحرىّ - لوتم - أن يكشف فـــى المستقبل عن كثير مما غمض علينا من نشأة اللغة العربية ، ومراحـــل تطورها المبكرة والافتراضات القائمة حتى الآن عن تلك النشأة والتـى ذكرها الباحثون تتلخص فى الآتى :

١- أن اللغة العربية (القحطانية) هى الأصل وأن أهل اليمـــن أول من نطق بها وأنهم أخذوا أصولها من بقايا القبائل العربيـة القديمة التى بادت مثل (عاد) و(ثمود) و(طسم) و(جديس) ثم توسعوا فيها وطوروها ، وقد انتقلت منهم الى غيرهم من القبائل فى سائر أنحاء شبة الجزيرة .

٢ - أن (يعرب بن قحطان) هو أول من نطق بالعربية ، وأن أولاده أخذوها عنه ، وعنهم أخذتها العرب ، ومنهم العـــــرب المستعربون أو الإسماعيليون . أما أبو يعرب فكان سريانيا فيمـــا يزعمـــون .

٣ - أن اسماعيل عليه السلام هو أول من أبان بالعربية وعنه وعن ذريته أخذها سائر سكان شبة الجزيرة (١) . ، ولايخفى مافى الرأيين

(١) راجع (السيرة النبوية) لابن هشام جـ١ ص١ دار التوفيقية للطباعة

الأخيرين من ضعف ، ويبقى الرأى الأول مقبولا فهو أقرب الآراء الى المنطق والصواب وعليه فاللغة العربية بدأت بالقحطانين المعروفين بالعرب العاربة ثم انتقلت منهم الى العدنانيين المعروفين بالعرب المستعربة ثم ازدهرت على أيدى الأخيرين وبلغت ذروة الكمال فى قبيلة (قريش) العدنانية ، ولكن كيف تم هذا الانتقال ؟

علمت مما سبق أن نسب (عدنان) يرجع الى (اسماعيل) بن ابراهيم عليهما السلام ، واسماعيل وافد على شبه الجزيرة فهو (مستعرب) هاجر به أبوه طفلا وتركه فى كفالة أمه السيدة (هاجر) المصرية الأصل كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم فى قول الله تعالى حكاية عن ابراهيم : "ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم " (سورة ابراهيم آية : ٣٧) .

وتربى اسماعيل فى جوار قبيلة (جرهم الثانية) التى كانت تقيم قريبا من الكعبة وهى قبيلة يمانية قحطانية تنطق بكلامهم ، وصاهرهم واتخذ لغتهم لسانا له ولأولاده ، ولا يبعد أن يكون قد أدخل فيها قليلا من لغة أمه المصرية ، ولغة أبيه السومرية - العراقية الذى كان يزوره بين الحين والحين .

فذرية اسماعيل نطقت بهذه اللغة الجرهمية اليمانية القحطانية المطعمة بشىء يسير من المصرية القديمة ومن السومرية القديمة وبذلك نشأت اللغة التى انتهت الى (عدنان) وسميت (العدنانية)

بعد أن نمت وتطورت بعض التطور .

وانتشر العدنانيون فى أنحاء شبه الجزيرة ، واختلطوا بالقحطانيين اختلاطا كبيرا لاسيما بعد هجرة الأخيرين من الجنوب الى الشمال ، والتقت اللغتان بعد أن نمت القحطانية كذلك وتطورت ، فاكتسبت كل واحدة من الأخرى بعض السمات والملامح وتبادلتا التأثير والتأثر .

ثم تقاربت اللغتان تقاربا شديدا وبخاصة فى لغة الشعر والأدب قبيل الإسلام ، ثم توحدتا تماما فى هذا المجال بعد مجىء الإسلام بفضل القرآن الكريم فى لغة قريش خاصة .

وعلى ذلك يمكن اجمال مراحل نشأة اللغة العربية وأطوار تدرجها فى طريق النمو والرفعة والتوحد فى الآتى :

(١) من العرب البائدة الى القحطانيين
(٢) من القحطانيين الى الاسماعيليين (العدنانيين)
(٣) من العدنانيين الى القحطانيين .
(٤) من قريش الى العرب جميعا .

وهذا التقارب الذى انتهى الى التوحد بين اللغتين القحطانية والعدنانية له أسباب أجملنا لك الاشارة اليها ، وهذا تفصيل لأهم هذه الأسباب :

(١) الهجرات القحطانية من (اليمن) فى الجنوب الـــى
شمال شبــة الجزيرة : وسطه وشرقية وغربية حيث يسكـــن
العدنانيون ومن أشهر تلك الهجرات وأكبرها هجـــــرة
قبائل (سبأ) على أثر خراب بلادهم نتيجة انهيار سدهـم
العظيم (سد مأرب) بسيل (العرم) الجارف ،فتفرقوا
فى نواحى شتى من شبة الجزيرة وضربت العرب بتفرقهم المثل
فقالوا : " تفرقوا أيدى سبا " ولقد ورد ذكر (سبـــأ)
وما أصابها من ذلك الحدث التاريخى وتشتتها فى البلا د
فى القرآن الكريم فى السورة المسماة باسمها ، اقرأ معــى
قول الله تعالى : " لقدكان لسبأ فى مسكنهم آيـــــة
جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلـــدة
طيبـــة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العـــــرم
وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشـــىء
من سدر قليل " الى أن يقول سبحانه : " فجعلناهم أحاديـــث
ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور "

(سورة سبأ ـ الآيات من ١٥ الى ١٩) .

ومن أشهر القبائل اليمنية التى هاجرت الى مواطن العدنانيين
واختلطت بهم اختلاطا كاملا شاملا : (كندة) (وطىء) اللتان

استقرتا فى (نجد) و(الأوس والخزرج) اللتان فى (الحجـــاز) و(غســان) التى أقامت فى أطراف الشام شرقا و(تنوخ) التـــى سكنت أطراف العراق غربـا •

(٢) النشاط الاقتصادى الواسع للقحطانيين : فقد ثبت فى تاريخ دولة (المعينيين) اليمنية أنها أقامت مراكز تجاريـــــة ثابتة على طول الطريق التجارى الذى يربط اليمـــــن بالشام مخترقـا شبة الجزيرة العربية لامداد القوافل بالمـاء والطعام والرجال للحراسـة ،كما قام (السبئيون) ثـــم (الحميريون) من بعدهم بنشاط تجارى مماثل مما هيــــأ فرصا كثيرة لالتقائهم بالعدنانيين فى تلك المراكز وما حولهـــا لتبادل التجارة والمصالح •

(٣) وفود القحطانيين إلى مكة فى موسم الحج حيث يلتقـــون بالعدنانيين من أهلها وسائر القبائل العدنانية الوافـدة لاداء المناسك ، وهو موسم يطول فيه المقام حول البيـــت الحرام فيتعارف العرب ، ويتبادلون المنافع والأخذ والعطـاء وتنشأ بينهم العلاقات نتيجة لتخاطبهم وتفاهمهم بعضهـــم مع بعض فى مختلف الشئون •

(اللهجات العربية وسيادة اللهجة القرشية) ولكن مع ذلـــك التقارب الذى أدى الى قيام وحدة لغوية تربط بين الشمـــال

والجنوب قبيل ظهور الاسلام وهى مزيج من لغتيهما مع رجحان الكفة العدنانية على القحطانية بفضل العوامل التى سقناها آنفا ، .

فقد كان لكل قبيلة عدنانية أو قحطانية لهجة خاصة بها أى طريقة فى نطق العربية تختلف قليلا أو كثيرا عن لهجات القبائل الأخرى ، كاستعمال التفخيم أو الترقيق فى بعض الحروف والإدغام أو الفك فى الحروف المشددة ، والوصل أو القطع فى همزة اول الكلمة والهمز أو التليين فى وسط الكلمة ، واستعمال بعض المترادفات دون بعض كالسكين أو المدية ، والاختلاف فى حرف من حروف الكلمة كالصقر أو السقر أو الزقر للطائر المعروف . وأمثلة أختلاف اللهجات كثيرة تجدها فى كتب (فقه اللغة)

واختلاف اللهجات عند قبائل العرب أمر طبيعى لاختلاف مواطن الاقامه لهذه القبائل ، وتعدد بيئاتها ، وتباين مرائيها ، وانعزال بعضها عن بعض فى المعيشة ، ونحن نرى الآن اختلاف اللهجات واقعا مألوفا بين عرب مصر وعرب الشام وعرب المغرب وسائر أنحاء العالم العربى بل نراه بين أجزاء القطر الواحد ، فالقطر المصرى مثلا تختلف فيه اللهجات بين الوجهين القبلى والبحرى بل تكاد تجد لهجة خاصة فى كل محافظة — تعرف بها وتتميز بها عما سواها مع تقاربها وأتصالها فلا عجب اذن ان تتعدد لهجات العرب الاقدمين فى محيط شبه الجزيرة الشاسع .

ولكن أعذب اللهجات العربية على الاطلاق كانت

(لهجة قريش) [1] ولذلك سادت وارتضاها العرب جميعا لغـــة لشعرهم وأدبهم قبيل الاسلام ، ولذلك أسباب تتلخص فى الآتى :

(١) فصاحة قريش وتحضرها ، وخصائصها اللسانية الممتازة .

(٢) صلاتها الواسعة والمباشرة بكل قبائل العرب وما هيأ لها ذلك :

أ - وفود العرب اليها فى موسم الحج من كل واد وفج عميق وإقامتهم بمكة فى ضيافتها زمنا غير قليل . وقيام قريش بأمر الكعبة أكسبها الزعامة الدينيـة على العرب وحباها بمنزلة سامية ممتازة .

ب - رحلات قريش التجارية وتواصلها وانتظامها بين اليمن والشـام مخترقة أهم أحياء شبة الجزيرة ، حيث يَغْدُو القرشيـون ويروحون بينها فى أمن وطمأنينة - دون غيرهم - اكراما لجيران بيـت الله الحرام ، وهذه الرحلات هى المشار اليها بقوله تعالى فى سورة قريش " لايلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هـذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، " وهذه الرحلات جعلت لقريش زعامة اقتصادية مرموقـة .

جـ قيام الأسواق الكبرى فى رحاب قريش للتجارة والأدب وأغـراض شتى والتى يغشاها العرب من كل مكان لذلك مثل سـوق

---

(١) وما أشبهها فى ذلك بلغة القاهرة بالنسبة لأهل القطر المصرى جميعا فلهجتها ألطف وأجمل اللهجات .

(عكاظ) قرب الطائف وسوق (مجنة) فى ضواحى مكة وسوق (ذى المجاز) قرب عرفات ٠

د — الحروب التى كانت تشب أحيانا بين قريش وغيرها من القبائل وماكان يسبقها ويتخللها من محالفات ، وما يعقبها من مجامع صلح ومعاهدات وهذه المجتمعات هيأت لقريش زعامة أدبية ٠

هـ — عياذ العرب جميعا بالبيت الحرام والكعبة المشرفة فى أى وقت من أوقات العام حيث يلقون الأمن والسكينة ، فكانت مكة حرما آمنا وملجأ لكل خائف يقصدها الكثير من أبناء القبائل لذلك ٠

كل هذا هيأ لقريش فرصا كثيرة لمخالطة العرب بكل طوائفهم ، والاستماع اليهم ، وأتاح لها أن تختار وتنتخب من لغة كل قبيلة ولهجتها ما عذب فى النطق وخف على اللسان وحسن فى السمع ، وأن تتجنب ما عدا ذلك وتنفى عن لهجتها العيوب ففازت فى النهاية بتلك اللهجة الجميلة الرائعة

* * *
* *
*

((الباب الثاني))

عوامل التأثير في الأدب الجاهلي

إذا كان الأدب في أى عصر وأى أمة صورة من الحياة الشاملة فيهما فان أدب العصر الجاهلي بوجه خاص جاء مصورا لحيوات العرب الجاهليين السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية أدق تصوير وأوفاه ، لأنه نابع منها بحق ، معبر عنها بصدق ، وهي العوامل الفعالة في ظهوره وتطوره ، وتنوع أغراضه ومعانيه ، وتلون خياله وأساليبه ودراسة هذه العوامل من أوجب الواجبات على دارس الأدب إذ هي خير معوان على فهم وادراك دوافعه النفسية ودلالاته التاريخية وأفضل موضح لخصائصه الفنية والفكرية في شكله ومضمونه ، فهي الضوء الكاشف والدليل الصادق ومن أجل ذلك عُنينا بعرضها عليك في إيجاز .

أولا : (الحياة السياسية والاجتماعية) :

أ - في البادية :

العرب إما بدويون يسكنون البوادي ويعيشون في

الصحراء ، وهم الكثرة الكاثرة ، وإما (حضريون) يقيمون فى المدن أو مسالك الأطراف وهم قلة .

أما نظام الحكم فى البادية فكانت وحدته (القبيلة) ، وكانت كل قبيلة كأنها دولة مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، ولا يتدخل أحد فى شئونها ، إذ ليست هناك حكومة مركزية تبسط سلطانها على القبائل ، والقبيلة مجموعة كبيرة من الأفراد تجمعهم صلة القرابة ويضمهم رباط العصبية ، إذ ينحدرون من أب واحد هو جدهم الأكبر الذى إليه ينتسبون ، وتنقسم القبيلة الى وحدات أصغر (كالبطون) و (الأفخاذ) ثم الى وحدات أصغر منها (كالعشائر) و (الفصائل) .

ويلى شئون القبيلة (سيد) يجتمعون عليه ويختارونه من أسنهم وأحكمهم ، أو من أقواهم وأشجعهم ، أو من أكثرهم مالا وأعزهم نفرا ، أو لا يوكل الأمر الى فرد منهم ، بل يختار كل بطن أو عشيرة سيدا ينوب عنهم فيكون فى القبيلة مجموعة من (السادة) يقومون بأمرها فيجتمعون للمشورة فى الشدائد والأمور المهمة فى السلم وفى الحرب .

ويقوم نظام القبيلة على تقديس الحرية الفردية ، واحترام مبدأ الشورى ، وعلى التكافل الاجتماعى فى أوقات الشدة ، وعلى مراعاة أعراف القبيلة وعاداتها وتقاليدها ، وكانوا يخصون رئيس القبيلة

ببعض المزايا فى غنائم الحرب خاصة تكريما له وفى ذلك يقول أحد شعرائهم :

لك المرباع منها والصفايا .. وحكمك والنشيطة والفضول

أى ربع الغنيمة ، وما يصطفيه لنفسه قبل القسمة ، وما يغنمونه فى الطريق قبل الحرب ، وما يفضل من الغنيمة بعد القسمة . والقبيلة اذا كانت كبيرة فانها تشتمل على طبقات ثلاث هى :

(١) (الصرحاء) وهم أبناء القبيلة الاصلاء ، وأحرارها المتمتعون بكل المزايا .

(٢) (الحلفاء) وهم أفراد غرباء طرأوا على القبيلة ، ووفدوا اليها لغرض ما ثم طابت لهم الحياة بها ، فأقاموا فيها برضا أهلها ، واختار كل منهم سيدا من ساداتها فحالفه على النصرة ، وعاش فى كنف حمايته ، وطبقة الاحلاف فى مرتبة متوسطة تلى مرتبة الصرحاء .

(٣) (الارقاء) وهم طبقة (العبيد) الذين اشتروا بالمال للخدمة لدى الاثرياء أو أسرى الحرب من الاعداء الذين عجزوا عن دفع الفداء ، ويكونون الطبقة الدنيا فى القبيلة المحرومة من كل الحقوق وهناك فريق رابع منفى من القبيلة مطرود من مجتمعها محروم من رعايتها يدعون (الخلعاء) وهم أفراد ارتكبوا جنايات فادحة فى النساء أو الاموال بالنسبة للغير ، وتحملت القبيلة تبعاتهم ثم كرروا جناياتهم

ويئست القبيلة من إصلاحهم ، فأعلنت براءتها منهم بحيث لا يلحقها عارهم ولا يلزمها حياتهم ، فكانوا يلجئون الى الجبال يعيشون فيها فرادى أو جماعات ويحترفون اللصوصية وقطع الطريق وقد عرفوا باسم (الصعاليك) .

وقبائل البدو تعيش حياة الرعي ، وتعتمد على الأنعام من إبل وبقر وغنم ، يشربون من ألبانها ، ويأكلون من لحومها ، ويصنعون بيوتهم من جلودها وينسجون ملابسهم من أصوافها وأوبارها وأشعارها وهم قوم رحل بحكم هذه الحياة ينتظرون المطر ، ويتتبعون مواقعه حيث ينبت الكلأ ، فاذا رعته ماشيتهم بحثوا عن غيره وتحولوا اليه ولهذا فمساكنهم الخيام الخفيفة ، يضربونها حين يقيمون ، ويقوضونها ويحملونها مع متاعهم القليل على ظهور الإبل حين يرحلون ، ولهذا كانت الابل أفضل أنعامهم وأكرم أموالهم وسفينة أسفارهم - فحياتهم شاقة قلقة غير مستقرة ولا وادعة ، فضلا عن أنهم في بحر البادية الواسع معرضون لهجوم وحوشها الضارية ، أو لصوصها المتربصين ولذلك اتخذوا الكلاب للحراسة واتخذ القادرون الخيل للغارة والصيد وأحيانا كانت السماء تجود عليهم بمطر غزير ، وغيث مدرار ، فيزرعون على مائة بعض الشعير يستعينون بخبزه على معيشتهم ، ويعدونه من أفضل أطعمتهم ، وأحيانا كانت الصحراء تسوق إليهم بعض حيوانها البرى من غزلان ووعول ، وبقر وحشى وحمر وحشية ، فيسرعون الى صيدها سعداء جذلين . أو ينشطون هم الى مرابعها البعيدة ، يطاردونها

بخيولهم السريعة ويرمونها بقسيهم وسهامهم فيصيبون منها ماقدر لهم ثم ينقلبون إلى أهلهم فكهين .

أما العلاقات بين القبائل فكانت علاقات سلام وحسن جوار فى القليل ، وعلاقات خصام وعداء وحرب فى الكثير بسبب التنافس والتنازع على موارد الماء ، ومواطن العشب كل قبيل يريد أن يستأثر بما سبق اليه منهما ، ويمنع من سواه ، أو يحاول أن ينتزع مافى يد الغير منهما بالقوة والاغتصاب ، مما جلب عليهم العداوات ، وأجج الخصومات وأثار الحروب الطاحنة المدمرة وكان العربى شديد الانفة سريع الغضب حاد العاطفة عصبى المزاج وساعدت هذه الطبيعة مع تلك الظروف الصعبة على اشتعال القتال بينهم لاتفه الاسباب وأوهى العلل ، وكان الاخذ بالثأر أمرا مقدسا عندهم مماكان يطيل أمد الحروب ويوسع شقة الخلاف ، عاش العرب البداة فى هذا الجو المضطرب الحافل بالصراع ضد ظروفهم الطبيعية الصعبة وضد بعضهم البعض ، وغالب حياتهم فى حروب يخوضونها أو فى فترات استعداد وتهيئو لخوضها ، يغيرون على غيرهم مهاجمين ابتغاء للغنيمة أو للانتقام أو يغار عليهم فيدافعون عن الديار والاعراض والاموال ، لا يترك أحدهم سلاحه والانلك ، ولذلك اعتزوا بأسلحتهم من سيوف ورماح ودروع ، وقسى ونبال ، وبرعوا فى استخدامها ، ومرنوا على ممارسة الحرب ومباشرة النزال ، وتمدحوا بالشجاعة والاقدام وذموا الجبن والاحجام وظهرت آثار كل ماسبق فى أدبهم شعرهم ونثرهم أيما ظهور

وأحيانا كانوا يسأمون الحرب ، ويضجون من ويلاتها بعد أن تأكل أخضرهم ويابسهم وتفنى زهرة شبابهم ، فيسعى عقلاؤهم فى الصلح وينبرى ساداتهم وكرماؤهم فى تحمل الديات وبذل المال فى سبيل حقن الدماء واصلاح ذات البين .

وكان (الكرم) الى جانب الشجاعة من أظهر صفاتهم وأوضح خصالهم حتى صار من أقوى عاداتهم ، وكانوا يندفعون اليه بوازع من حب الخير وإسداء الجميل والمعروف ، - ومن هنا أحبوا الضيفان - - ومن فخرهم بهذا العمل الانسانى الذى هو عنوان المروءة والشرف وعلو الهمة ، وتباريهم فى ميدانه ، وأيضا لأنّ اكرام الضيف كان يشبه أن يكون ضرورة اجتماعية يتبادلها العرب إذ يتعرض كل منهم للسفر والغربة والانفراد عن أهله وماله والاضطرار الى النزول على حى من أحياء العرب ، وهو لو لم يُكرم لهلك فى جوف الصحراء لطول الشقة وتباعد الديار ، وانعدام الحيلة عند ذلك على مواجهة مطالب الحياة .

ومن مظاهر الكرم عندهم (إيقاد النيران) ليلا فى مكان مرتفع ليهتدى بها الضيف أو الغريب المنقطع الى الديار وقد بالغ فى ذلك مشهور كرمائهم (كحاتم الطائى) الذى يحث أحد عبيده على مواصلة إيقاد النار فى ليلة شاتية شديدة الظلمة فيخاطبه قائلا .

أوقِدْ فإنّ الليلَ ليلٌ قُرٌّ .. والريح ياغلام ريحٌ صِرٌّ
عل يرى نارك من يمرُّ .. إنْ جلبَتْ ضيفا فأنت حُرٌّ !!

وكانت (المرأة) العربية مشاركة لزوجها فى العمل وتحمل أعباء الحياة فعليها جلب الماء وحلب الماشية واعداد الطعام والاحتطاب ونسج الملابس وغير ذلك مما تستطيع النهوض به الى جانب تربية الاولاد ورعايتهم وزوجها يستشيرها فى فى أموره ويعمل بمشورتها ويتمدح بخصالها ويطرى جمالها ويبالغ فى إظهار عاطفته نحوها بل ان هذه العاطفة المشبوبة احتلت المقام الاول فى الادب الجاهلى إذ حرص كل شاعر على أن يفتتح قصائده بذكر المرأة والتغزل فيها والتودد إليها ، وقد صار هذا النهج تقليدا متبعا لمن جاء بعدهم من شعراء العربية حتى فى عصور الحضارة .

والمرأة عند البدوى موضع الاعتزاز والتكريم أما وأختا وزوجة وابنة ، وان كرهوا انجاب البنات من شدة غيرتهم على العرض وخوفهم من ثلمه ، ولشدة رغبتهم فى انجاب البنين لحاجتهم اليهم كحماة للقبيلة ووقود للحرب ، وقد أدى ذلك الى جانب موجات القحط التى كانت تغشى أهل البادية فى بعض الأحيان مع شيوع الجهل وفساد العقائد الى مقارفة بعض القبائل المنحطة رذيلة (وأد البنات(١)) خشية العار والى قتل الاولاد عموما خشية الفقر ، وقد قضى الاسلام

---

(١) دفنهن أحياء .

على هذين العملين الوحشيين ، وندد بهما القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى : " ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم إنّ قتلهُمْ كان خِطْئاً كبيرا " (سورة الاسراء : ٣١) .

واذ يقول سبحانه " وإذا بُشّرَ أحدهم بالانثى ظلّ وجهُهُ مُسْوَدّاً وهو كَظِيم ، يتوارى مِنَ القوم مِنْ سوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أيُمْسِكُهُ على هُونٍ أمْ يدسُّهُ فى الترابِ ألاَ سَاءَ مايحكمون " (النحل : ٥٩) .

واذ يقول جل شأنه : " وإذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ " ؟! (سورة التكوير ، آيتا : ٨ ، ٩) .

ب- فى الحواضر :

والعرب الحضريون كانوا يعيشون إمافى (المدن الداخلية) (كمكة) و(يثرب) و(الطائف) واما فى (ممالك الأطراف) كاليمن ومملكتى (المناذرة) بالحيرة على أطراف العراق و(الغساسنة) فى الشام ودرجة التحضر فى المدن الداخلية كانت أقل منها فى ممالك الأطراف ، وذلك لأنْ أهل تلك الممالك كانوا يجاورون أمما ذات حضارة كبيرة كالفرس والروم ، ويختلطون بهم اختلاطا كبيرا .

ونبدأ بالحديث عن حياة أهل المدن الداخلية الواقعة فى قلب شبه الجزيرة :

(١) مكـة : استقرت قبيلة قريش الكبيرة فى مكة فى أوائل القـــرن الخامس الميلادى ، قبل الاسلام بقرن ونصف تقريبـــــا بزعامة (قصى بن كلاب) الجد الرابع للنبى عليه الصــــلاة والسلام الذى كان من أبرز أعماله : إنشاء (دار الندوة) قريبا من الكعبة المشرفة ، ومنذ ذلك الحين نشأ فى مكة مايشبـــه الحكومة الجماعية أو (مجلس الشيوخ) الحاكم ، إذ كان كبـار القرشيين يجتمعون فى هذه الدار للتشاور وإبرام مهام الامـــور ولا يسمح بحضور هذه الاجتماعات إلا لمن بلغ الاربعين مـــــن العمر ، فدار الندوة اذن كانت بمثابة دار الحكومة وللمشـــورة وقد أدى هذا النظام الى لون من الاستقـرار السياسى بيـــن بطون قريش وعشائرها المتعددة ، وأكسبها مهابة وقوة بيـــن العرب جميعا وقد اتفقـت كلمة قريش على تقسيم السلطـــات والاعباء ومناصب الشرف فى المدينة وتوزيعها على كافة بطـون قريش درءا للتنازع ، وتحقيقا للعدالة والمساواة ، فكـــان من أهمها : (١)

(٢) (السِّدَانَةُ) : وهى خدمة الكعبة ، وحفظ مفتاحها والعناية بشئونها وكانت (لبنى عبد الدار بن قصى) .

---

(١) لمزيـد من التفصيل : راجع (العقد الفريد) لابن عبد ربـه جـ ٣ ص ٢٦٠ تحقيق العريان ط الاستقامة بالقاهره ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م .

(٣) (النَّدْوَةُ) : وهى الإشراف على دار الندوة والقيام بشئونها وكانت لهم أيضا .

(٤) (السِّقَايَةُ) : وهى التكفل بإمداد الحجيج بالماء فى موسم الحج وكانت (لبنى هاشم بن عبد مناف .)

(٥) (العِمَارَةُ) : وهى الاشراف على (المسجد الحرام) ومنع الناس من الرفث [١] فية وارتكاب مايخل بحرمته ، وكانت لهم كذلك .

(٦) (الرِّفَادَةُ) وهى تقديم ما تكفلت قريش باخراجه من أموالها لإطعام الحجاج فى الموسم عملا بوصية (قصى) وكانت فى (بنى نوفل بن عبد مناف) .

(٧) (اللِّواء) : وهى راية قريش التى ترفع عند الحرب ، وكانت تسمى (العقاب) - بضم العين - تشبيها لها بطائر العقاب فى المنعة والعلو وفى المثل (أمنع من عقاب الجو) - وكان حفظها الى (بنى أمية بن عبد شمس) فاذا قامت حرب أخرجوها فتختار قريش من يحملها .

(٨) (القُبَّة) : وهى خيمة كبيرة يقيمونها إذا اعتزموا حربا فيجمعون فيها السلاح والعتاد وأدوات الحرب وكانت (لبنى مخزوم) .

---

(١) الرفث : الفحش .

(٩) (الأَعِنَّةُ) : وهى الخيل التى يعدونها للحرب ، وقيادتها وتدبير شئونها ، وكانت لهم أيضا .

(١٠) (الأشْنَاقُ) - بفتح الهمزة - وهى الديات والمغارم ، وكانت فى (بنى تيم بن مرة) رهط (أبى بكر) رضى الله عنه وكان صاحبها إذا احتمل شيئا منها وعرضه على قريش صدقته وأمضته ، وإذا احتملها غيره خذلته ورفضته .

(١١) (السِّفَارَةُ) وهى السعى بين قريش وغيرها فى الحرب والسلم للصلح أو الحلف أو غير ذلك من الأمور ، وكانت فى (بنى عدى بن كعب) رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(١٢) (المشورة) وكانت فى (بنى أسد) وذلك أنه إذا تشعب رأى (قريش) فى أمر من الأمور الى فرقتين أو أكثر ، كان لصاحب المشورة حق الترجيح والاختيار لما يراه أصوب من تلك الآراء ، وترضى قريش كلها بذلك حسما للخلاف .

(١٣) أما (يَثْرِبُ) - التى سميت بعد هجرة الرسول اليها (بالمدينة المنورة) - فقد كان يسكنها قبيلتا (الأوس) و (الخزرج) الأزديتان اللتان يرجع نسبهما الى قبائل (كهلان) اليمنية وكان يشاركهما فى الإقامة بضواحى يثرب جماعة من اليهود (كبنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير) ، وكان الاستقرار السياسى مَفْقُودًا فى يثرب لقيام الحرب بين العرب واليهود فلما يئس اليهود من التغلب عليهم أغْرَوْا كلاًّ مِنَ القبيلتين العربيتين بالأخرى فتحارب

الأوس والخزرج أشد حرب وأنكاها ، وكانت لهم أيام قاسية أرثت فيهم الإحن والعداوات ، وزلزلت حياتهم ، وكادوا يتفانون ، وأخذ كل من القبيلتين يلتمس الحليف ، ويسعى الى التعاهد مع قبيلة أخرى يستعين بها فى الحرب ، وانتهزت جماعات اليهود الفرصة لتنصر فريقا منهم على فريق وتنكل به فلم يزالوا كذلك حتى أنقذهم الله بالإسلام .

(١٤) وأما (الطائف) فكانت تسكنها قبيلة (ثقيف) وهى قبيلة ترجع فى نسبها الى (هوازن) إحدى قبائل (قيس عيلان) المضرية وهذا النسب هو الأرجح خلافا لما قيل من أنها ترجع الى بقايا قبيلة (ثمود) البائدة - وكانت الأحوال السياسية فى ثقيف شبيهة بما كان فى مكة ، لتقارب البلدتين وتشابك مصالحهما ، وقد ورد ذكرهما معا فى القرآن الكريم قال تعالى : "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" (سورة الزخرف :آية : ٣١) .

فالقريتان هما : (مكة والطائف) والرجلان اللذان عنتهما قريش هما : (الوليد بن المغيرة) من مكة و(عروة بن مسعود) بالطائف أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كانت طبقات المجتمع فى المدن الثلاث هى نفسها طبقات قبائل البادية ، فهنا كما هناك طبقة (الأحرار الصرحاء) وطبقة (الحلفاء) وطبقة العبيد الأرقاء) .

وأن تميزت الطبقتان الأخيرتان بالكثرة النسبية في المدن عنها في البوادي وخاصة (مكة) لكثرة من كان يفد الى مكة ويفضل الإقامة فيها ويحالف أهلها فكثر (الحلفاء) بها ، ولثراء قريش وكثرة ساداتها وتوسعهم في استجلاب الرقيق فكثرت (طبقة العبيد) بها .

وتعتمد حياة سكان بعض المدن (كمكة) على التجارة وما يربحون منها من أموال طائلة ، إذ كانت للقرشيين بها تجارة واسعة ، ورحلات منتظمة الى أقصى الجنوب في اليمن شتاء ، والى أقصى الشمال في الشام صيفا ، وقد برعت قريش في التجارة ، وكانوا يسهمون جميعا في قوافلها وعيرها ويقتسمون عائدها كل بحسب سهمه ونصيبه في رأس المال ، وقد أثرت مكة من جراء ذلك ثراء عظيما واقتنت كرائم المال وبنت الدور المشيدة وعمرت المسجد الحرام ، وقامت بحق الحجيج في موسم الحج فهابتها العرب جميعا واعترفت لها بالزعامة ، وساعد القرشيين على ذلك ما تمتعوا به في داخل مدينتهم من جو الاستقرار السياسي والأمن اللذين حد حدثناك عنهما آنفا ، زد على ذلك جو الأمن الخارجي الذي نالوه من احترام العرب في أنحاء شبه الجزيرة لهم وتعظيمهم ولصقهم وحرمتهم باعتبارهم جيران بيت الله الحرام وسدنة الكعبة المشرفة ، فلا يُعتدى على تجارتهم في أي مكان ، ولا يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من العدوان والسلب والنهب وقد أمتن الله تعالى عليهم بهذه النعمة إذ يقول "أو لم يروا أنا جعلنا حرما

آمنا ويتخطف الناس من حولهم " (سورة العنكبوت ، آية : ٦٧) .

وقد سبقت الاشارة الى ما ورد من تجارة أهل مكة ورحلتيهم المشهورتين فى سورة قريش من الكتاب العزيز. وقد عوضها الله بالتجارة عن أرضها الصخرية ووديانها المقفرة وطبيعتها الجبلية ، وتعتمد حياة أهل المدن (فى بعضها الآخر) على الزراعة ، (كيثرب) التى اشتهرت بنخيلها الكثير وتمرها الجيد و (الطائف) التى عرفت الى جانب جوها المعتدل الرائع بفاكهتها الطيبة وأعنابها الكثيرة ، وذلك لما حبا الله هاتين المدينتين من وفرة المياه ، وخصوبة الأرض مما هيأ لهم ممارسة الزرع والحرث وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين .

ولا ننسى أن ننبهك الى أن (حرفة الرعى) كانت موجودة أيضا فى المدن الى جانب التجارة أو الزراعة ، وان لم تكن هى عماد الحياة كما هو الشأن فى البادية

(ونثنى بالحديث) عن الحياة السياسية والاجتماعية للعرب الحضريين فى ممالك الأطراف .

(١) (مملكة اليمن :)

ساعدت وفرة مياه الأمطار فى بلاد اليمن مع خصوبة أرضها على قيام مجتمع زراعى مستقر فيها ، وحبا الله اليمن إلى ما سبق موقعا ممتازا يربط بين قارتى آسية وافريقية ، وتضافرت هـذه

العوامل على إيجاد حضارة مزدهرة وقيام دول ذات نظام فى هـــذا الجزء من شبه الجزيرة منذ أقدم العصور ، وحكمت هذه الـــدول اليمن قرابة (خمسة عشر) قرنا قبل الإسلام .

وأقدم هذه الدول فى التاريخ المعروف (دولة المعينيـــن) والتى قامت فى شمال اليمن التى امتازت بنشاطها التجارى الواسع وحكمت (قرنين ونصفا) من الزمان (١٢٠٠ ــ ٩٥٠ ق م) .

وجاءت بعدها (دولة سبأ) العظيمة ذات الحضارة الباهرة التى كان من أضخم مظاهرها (سد مأرب) الكبير الذى كان يحجز مياه السيول ويخزنها لينتفع بها فى وقت الحاجة ، وقد استخدمه السبئيون فى رى مساحات كبيرة من الأرض فازدهرت زراعتهم وتحولت بلادهم إلى جنات يانعة الثمار وارفة الظلال . كما ازدهرت تجارتهم وعلاقاتهم مع الدول الأخرى ، وبرعوا فى صناعة المنسوجات وغيرها كالسيوف والعطور ومن أشهر ملوك سبأ : (الملكة بلقيس) التى كانت معاصرة لنبى الله (سليمان) عليه السلام ، وكان لها عرش عظيم ، ومجلس شورى من قومها يجتمع للبت فى الأمور المهمة كما حكى عنها القرآن الكريم فى سورة النمل [1] .

ثم انهار سد مأرب فدالت دولة سبأ بعد أن حكمت اكثر من (ثمانية قرون) [2] وخلفتها فى اليمن (دولة حمير) التى حكمت

---

(١) الآيات من ٢٢ ــ ٤٤ .

(٢) راجع : تاريخ مصر والعالم القديم للدكتور جمال الدين مختار

قبيل ظهور الاسلام ، وتعصب آخر ملوكها (يوسف ذو نواس) للديانة اليهودية ، واضطهد نصارى نجران وعذبهم عذابا شديدا

٤ - وكان هذا سببا فى غزو الأحباش لليمن بقيادة (أرياط) ثم (أبرهة) الأشرم صاحب الفيل الذى غزا الحجاز بجيشه ليهدم الكعبة ، فمنع الله بيته وأهلك أبرهة وجيشه ، وورد ذكر ذلك فى القرآن الكريم فى سورة (الفيل) .

ويوافق عام الفيل الذى أرخت به العرب عام مولد رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام .

ثم استرد اليمنيون بلادهم من الأحباش على يد أحد زعمائهم وهو (سيف بن ذى يزن) بمعاونة (الفرس) الذين انتهزوا فرصة وفاة سيف فجأة فبسطوا سلطانهم على اليمن وظل الأمر كذلك حتى جاء الاسلام ، وبعد صلح الحديبية أسلم والى اليمن الفارسى (باذان) ودخلت اليمن فى العهد الإسلامى منذ ذلك الحين .

وكانت اليمن مقسمة الى وحدات اقليمية يسمى كل واحد منها (مخلافا) عليه حاكم من قبل الملك المقيم فى (صنعاء) فى وسط البلاد عاصمة الحميريين ، وكان بها قصر (غمدان) المشهور فى الأدب العربى القديم ، وكانت (مأرب) عاصمة السبئيين مدينة فخمة عامرة بالدور والقصور وتقع الى الشرق من صنعاء ، اما عاصمة المعينيين فاسمها (قرناو) وكانت الى الجنوب من مأرب .

(٢) (مملكة الحيــرة) : [وملوكها هم المناذرة] .

وقد نشأت عندما هاجرت قبيلة (لخم) اليمنية الـــى شواطىء الفرات عند حدود العراق وأسس زعماؤها إمـــارة الحيرة هناك على الشاطئ الغربي للفرات بالقرب من النفوذ الفارسي المباشر وكانوا مضطرين للخضوع لهذا النفـــوذ ورحب الفرس بقيام هذه الامارة وبسطو حمايتهم عليها وصـار ملوكها ولاة لكسرى على ما تحت أيديهم منفذين لسياستــه فى هذه البقعة التى كانت ذات هدفين (أولهما) أن تكون هذه الامارة سدا منيعا يحمى ريف العراق من هجمـــات أعراب البادية المتاخمين له والتى كانوا يشنونها دوامـــا للسلب والنهب (والثانى) أن يستفيد الفرس بجيـــش هذه الامارة فى الصراع والحرب بينهم وبين أعدائهم (الروم) وهو صراع طويل مرير استمر الى ما بعد ظهور الاسلام .

وقد اشتهر من ملوك هذه الامارة (المنذر بن مـــاء السماء) و (النعمان بن المنذر) ممدوح الشاعر الجاهلـــى (النابغة الذبيانى) والذى قتله كسرى وكان ذلك مـــن أسباب موقعة (ذى قار) بين العرب والفرس والتـــى انتصر فيها العرب لأول مرة على جيوش فارس وكان لها شأنها فى الأدب العربى الجاهلـــى .

وقد قلد ملوك الحيرة اللخميين أكاسرة الفرس فى بعض مظاهر الملك وأبهته واقتبسوا من أنظمتهم فى الحكم والإدارة والعمارة فكان لهم قصرا (الخورنق) (والسدير) اللذان ورد ذكرهما فى الشعر الجاهلى .

٣ - مملكة الغساسنة :

وهم أولاد قبيلة يمنية كذلك[1] أى من أبناء عمومة كل من اللخميين والأوس والخزرج ، وقد هاجروا الى أطراف الشام واستقروا حول بئر هناك يقال لهما (غسان) نسبوا إليها واكتسبوا اسمها وأسسوا جهة (حوران) إماره قوية على مشارف امبراطورية الروم القوية وكما هى عادة الدول الكبرى مع الدويلات المجاورة لها بسط الروم حمايتهم على إمارة الغساسنة ، وقدموا لها بعض المعونات المالية ثم استغلوها فى تنفيذ مآربهم الشبيهة بمآرب الفرس مع اللخميين استغلوها فى تأمين حدود الشام التابع لهم من غارات الأعراب الخاطفة الذين يغيرون للسلب والنهب ثم يهربون الى الصحراء ذائبين فى فيافيها الشاسعة ، كما استغلوها فى صراعهم مع دولة الفرس القوية فأشركوهم فى حروبهم ضدها ، وهكذا احترب (الغساسنة) فى صف الروم مع ابناء عمومتهم من العرب (اللخميين) الذين فى صف الفرس بلا هدف ولا مصلحة إلا تحقيق أهداف ومطامع الدولتين الكبيرتين العاتيتين .

---

(١) هى (الأزد) الكهلانية .

وكما اضطهد الفرس اللخميين امراء الحيرة فى النهاية ، اضطهد الروم الغساسنة وضيقوا على إمارتهم حتى ساءت أحوالها ، وآخر ملوكهم هو (جبلة بن الأيهم) الذى قدم ا (المدينة المنورة) مسلما بعد فتح المسلمين للشام فى عهد أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه - وكانت عاصمه الغسانيين (بصرى) ذات القصور البيضاء التى بشر رسول الله المسلمين بفتحها وتقع الى الجنوب من دمشق ونظرا لمجاورة الغساسنة للروم فى الشام ، فقد عاشوا مثلهم عيشة حضرية مترفة ، وهم ممدوحو الشاعر المخضرم (حسان بن ثابت) رضى الله عنه الذى خلد ذكرهم بقصائد رائعة فى الأدب العربى .

وإذ قد سقنا لك لمحات عن حياة العرب - بدوهم وحضرهم - من الناحيتين السياسية والاجتماعيه فلا نخالك الا قد لاحظت أن الحرب كانت من أهم الظواهر الواضحة فى حياتهم والمسيطرة على مجتمعاتهم ، وهذه الحروب المتلاحقة كان لها الاثر الكبير فى أدبهم وفى شعرهم بوجه خاص ، وقد سجلها مؤرخو الأدب تحت اسم (أيام العرب) ويعنون باليوم : الموقعة الحربية ، وأيام العرب هذه كثيرة بالغة الكثرة ، حافلة بأخبارهم ، ووصف طباعهم ، وأخلاقهم وطريقة تفكيرهم وأساليب تعاملهم ، وتجدها بتفاصيلها الدقيقة فى أمهات كتب الأدب [1] والتاريخ وقد اخترنا لك بعضها وعرضنا أحداثها فى ايجاز متوخين فى الاختيار أن يكون ممثلا لاتجاهاتها بين القبائل البدوية من يمنية وعدنانية ثم بين ممالك الحضر ، ثم بين العرب والعجم

---

(١) كالأغانى والعقد الفريد ومجمع الأمثال .

(١) (يوم خَزَازَى) بين اليمانين والعدنانيين ، وكان ملوك حمير اليمنيين قد بسطوا سلطانهم على قبائل نزار العدنانية يأخذون منها إتاوة سنوية وجاء عام امتنعت فيه تلك القبائل عن دفع شيء لليمنيين فأسرهؤلاء بعض النزاريين مهددين بقتلهم إن لم يدفع قومهم الاتاوة فغضب النزاريون لذلك واجتمعوا على (كليب وائل) وساروا الحرب اليمنيين وجعلوا على مقدتهم (السفاح التغلبى) وقالوا له : أوقد على جبل خزاز نارا للهداية ليلا ، فاذا غشيك العدو فأوقد نارين ، واقبل اليمنيون من قبيلة (مذحج) لملاقاتهم فلما وصلوا الى خزاز أوقد السفاح نارين والتقى الجيشان صباحا ، واقتتلوا قتالا شديدا ودارت الدائرة على اليمنيين فانهزموا ، وانتصر العدنانيون وتحرروا من عار الإتاوة الى الابد ، وبهذا اليوم افتخر الشاعر الجاهلى (عمرو بن كلثوم) التغلبى حين قال :

ونحن غداة أُوقد فى (خَزَازٍ) .. رَفَدْنا فوق رِفْدِ الرافدينا [(١)]
فكُنّا الأيمنينَ إذا التقينا .. وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صَوْلَةً فيمنْ يليهم .. وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبَايَا .. وأُبْنَا بالملوك مُصَفَّدِينَا [(٢)]

(٢) (يوم الزويرين) بين ربيعة ومضر ، قامت الحرب بين قبيلة تميم من ربيعة ، وقبيلة بكر من مضر ، وسببها أن بكرا كانت إذا أجدبت تنتجع بعض أرض تميم وعند عودة البكريين الى ديارهم كانوا لا يمرون بعورة الا انتهكوها ولا يظفرون بشيء الا اكتسحوه فساء ذلك تميما وجمّعوا جموعهم

---

(١) أعطينا (٢) النهاب : الغنائم ، والسبايا : الأسيرات ، مصفدين : موثقين في القيود .

لحرب بكر ، وأقبلوا الى ساحة الحرب بجملين مقرونين مقيدين ، وقالوا : لانولى حتى يولى هذان (الزُّوَيْرانِ) وجاء البكريون بقيادة سيدهم (عمرو بن الاصم) فأخبره قومه بمافعل التميميون من أمر الزويرين فقال : " وأنا زويركم ، إنْ خشوهما (١) فخشونى ، وان عقروهما فاعقرونى ، ثم التقى الجمعان فاقتتلوا اقتتالا شديدا ولكن بنى تميم انهزموا ، وغنمت بكر الجملين ، فنحرتْ أحدهما ، وافتحلت الاخر لنجابته ، وافتخروا بذلك فقال شاعرهم من بنى سدوس :

يا سَلْمُ إنْ تسألى عنافلا كُشُفٌ ... عندَ اللقاءِ* ولسْنا بالمقاريف
نحن الذين عزمنايم صبحنا ... جيش الزُّوَيْرَيْنِ فى جَمْعِ الاحاليف
ظَلُّوا وظلْنا نكرُّ الخيلَ وسْطهمو ... بالشِّيبِ منا وبالمُرْدِ الغطاريف (٣)

وقال آخر وهو الاغلب بن جشم العجلى :

جاءوا بزوْرَيهِمْ وجئْنا بالاصمّ ... شيخٌ لنا قدكان من عهد إرَمْ (٤)
يكُرُّ بالسيفِ إذا الرمحُ انحطمْ ... كهمّةِ الليثِ إذا ماالليثُ هَمْ

(٣) (حرب البَسُوس) بين بكْرٍ وتَغْلِب ابنى وائل ، وشبت هذه الحرب الضروس التى قيل إنها مكثت زهاء أربعين سنة بسبب مصرع (كليب بن وائل) التَغْلِبىّ بيد أخى زوجته (جليلة)، وهو (جساس بن مُرَّةَ البكرىّ)

---

* سلم : سليمى ناسم امرأة ، لاكشف : أى لا نفر

(١) خزموهما (٢) المقاريف جمع مقرف وهو من أمه عربية دون أبيه .
(٣) الغطاريف : جمع غطريف : الشاب الظريف .
(٤) كناية عن كونه طاعنا فى السن ، (وإرَم) قبيلة عاد الذين أهلكهم الله تعالى ، أو اسم مدينتهم ، وورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة (الفجر)

وكان كليب قد تزعم (مَعَدًّا) على أثر انتصاره على اليمنيين فى يوم خزاز السابق ذكره ، وعظمته منزلته بين قومه ، ولكنه بغى وطغى فكان يستأثر بالمراعى الخصبة يبيحها لمن يشاء ويحرم من يشاء وكذلك المياه فأحفظ عليه القلوب وغير النفوس ، وحدث أن خالة جساس واسمها (البسوس (١)) نزلت فى ضيافته ، وكانت لها ناقة اسمها (سراب (٢)) اندست يوما فى ابل كليب عند ورودها الماء فرآها كليب فرماها بسهم فى ضرعها فاختلط دمها بلبنها ورأتها البسوس فصاحت واذلاه يا لبكر !! وسمعها جساس فغضب وأقسم ليثأرن لها ، ثم توجه الى كليب فعاتبه على مافعل فأغلظ له كليب القول فطعنه جساس فقتله ثم ركض مسرعا الى قومه وهاج الشر بين الحيين وأعظمت تغلب قتل سيدها كليب فى ناب من الإبل وتزعمها أخوه (عدى) الملقب بالمهلهل ، وكان فارسا شجاعا وشاعرا مفلقا فقاد الحرب ضد بكر فى عنف وإصرار ، لا يشبع من القتل وسفك دماء البكريين ولا ينفك يبكى كليبا ويرثيه أحر رثاء ومن ذلك قوله :

يَا لَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِى كُلَيْبًا (٣) .. يَا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ ؟!!

يا لبكر فارْحلوا أو فحلّوا .. صَرَّحَ الشَّرُّ وبانَ السِّرَارُ !! (٤)

وقوله : قتلوا كليبا ثم قالوا أَرْبِعُوا .. كذبوا وربِّ الحلِّ والإحرامِ (٥)

حتى تبيد قبائلٌ ، وقبيلةٌ ... ويَعَضَّ كلُّ مثقّفٍ بالهَامِ (٦)

وتقوم ربّاتُ الخدورِ حَوَاسِرًا ... يَمْسَحْنَ عرضَ ذوائبِ الأيتامِ (٧)

(٢،١) ضربت العرب بهما المثل فى الشؤم لما تسببا فيه من هذه الحرب الضروس فقيل : أشأم من البسوس وأشأم من سَرَاب . وراجع أمثال العرب للميدانى . (٣) ابعثوه حيا .. ! (٤) المستور

(٥) اربعوا : كفّوا عن الحرب (٦) المثقّف : الرمح المستوى والهام : الرؤوس

(٧) ربات الخدور : النساء المصونات ، حواسرا : كاشفات لوجوههن ورؤوسهن

حتى يعضَّ الشيخُ بعدَ حَمِيمِهِ .. مما يرى ندمًا على الإبهامِ

وكان النصر فى الوقائع الأولى لتغلب على بكر ولكن المهلهل لم يقنع بذلك وأسرف فى القتل حتى نال سيفه من اعتزل الحرب من بطون بكر فغضبوا وجمعوا شملهم فدارت الدائرة على المهلهل وقومه فتفرقوا عنه وسئموا الحرب ففارقهم وسار إلى اليمن ومات هناك غريبا مشردا

(٤) حرب (دَاحِس والْغَبْراءْ) بين (عَبْسٍ و(ذُبْيَان)

وكان سببها (مراهنة) على مائة من الإبل لمن يسبق فرسه بين (قيس بن زهير العبسى) وكان جواده يسمى (داحسًا) و(حَمَل بن بدر الفزارى)(1) وكانت له فرس اسمُها (الغَبْراءُ) ولما أجْرِيَ السباقُ سبق داحس ، ولكن (حملا) كان قد أعدَّ كمينا فى منعطف قرب النهاية واتفق معهم على أن يردوا وجه داحس إنْ رأوه سابقا وهكذا كان فسبقت الغبراء ، وعلم قيس بذلك فغضب وطالب حملا بالرهان وأيده الحكم فدفعه اليه ثم ندم وبعث ابنه (مالكا) الى قيس يطالبه برد الرهان فرفض واغلظ له مالك فى القول فقتله زهير ، وأدى العبسيون ديته مائة ناقة عشراء وسكتوا قليلا ثم غدر الفزاريون وعدوا على (مالك بن زهير العبسى) فقتلوه ، فهاجت الحرب بين الفريقين مدة طويلة قاربت أربعين عاما كان معظم أيامها لعبس على فزارة وقتل فى بعضها زعماء فزارة (حمل بن بدر) ، وأخوه (حذيفة) ، واشترك فيها (عنترة

---

(١) فزارة من ذبيان ، وعبس وذبيان من (غطفان) من قبائل قيس عيلان) المضرية ، وقد ذكر (النابغة الذبيانى) هذه الحرب فى معلقته المشهورة بقوله: تداركتما عبسًا وذبيان بعدما :. تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ابن شداد الشاعر والبطل المشهور ، وكانت خاتمة هذه المأساة التى تكرر فيها غدْر بنى فزارة وكاد الحيان أن يفْنيا أن سعى للصلح بينهما (الحارثُ بنُ عوفٍ) و(هَرِمُ بنُ سِنانٍ) المريان ، واحتملا الديات فكفت الحرب وحقنت الدماء ، وقيل فى هذه الحرب شعر كثير بعضه لقيس بن زهير وبعضه لعنترة فمما قاله الأول :

كما لاقيتُ مِنْ (حَمَلِ بْنِ بدرٍ) .. وإخوتِهِ على (ذات الإصادِ)(١)
هُمُو فَخَرُوا علىَّ بغير فخرٍ .. وردُّوا دونَ غايتِهِ جَوادى

وقوله يرثى مقتوله (حَمَل بن بدر) وهو اول من فعل ذلك :

تعلَّمْ أنَّ خيرَ الناس طُرًّا .. على (جَفْر الهباءَةِ) مايريمُ (٢)
ولولا ظلمُهُ مازلتُ أبكى .. عليه الدهرَ ماطلع النجومُ
ولكن الفتى (حمل بن بدرٍ) .. بغى والبغى مرتعه وخيم (٣)

وقوله : شَفَيْتُ النفسَ من حمِلِ بن بدرٍ .. وسيفى مِنْ حذيفةَ قد شفانى
فإنْ أكُ قد بَرَدْتُ بهمْ غليلى .. فلم أقطعْ بهمْ إلا بنانى (٤)

ومما قاله (زهير بن أبى سلمى) فى مدح الساعيين بالصلح :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما .. تفانَوْا ودَقُّوا بينهمْ عِطْرَ (مَنْشِمِ)(٥)
وقد قلتما إنْ ندركِ السلمَ واسعًا .. بمالٍ ومعروفٍ من القول نَسْلِمِ .

٥ - يوم (بعاث) بين (الأوس والخزرج)

وسببه أن الأوس والخزرج تنازعتا بعد اتفاق بفعل دسائس اليهود فطلبت الأوس إلى بنى قريظة وبنى النضير من اليهود أن يحالفوهم على الخزرج ، فبعث الخزرج إلى اليهود

---

(١) موضع دارت عنده إحدى المعارك . (٢) موضع آخر
(٣) مرتعه وخيم : عاقبته سيئة مهلكة . (٤) البنان : طرف الإصبع
(٥) اسم امرأة ضربت بها العرب المثل فى الشؤم .

يهددونهم ان حالفوهم ،فلم يسع اليهود الا أن ينزلوا على رغبة الخزرج وأكدوا ذلك بتسليمهم أربعين غلاما رهينة لديهم فقال شاعر الخزرج يذكر ذلك مفتخرا :

فذلوالرهنِ عندنا فى حِبالِنا .. مُصَانعةً يخشوْنَ منا القوارِعَا
وذاك بأنا حين نلقَى عدوّنَا .. نصولُ بضربٍ يتركُ العزَّ خاشعا

فتحالف اليهود مع الأوس على حرب الخزرج والتقوا فى مكان يقال له (بعاث) قرب يثرب واقتتلوا اقتتالا شديدا فانهزم الأوس أولا ،ثم كروا فانهزم الخزرج ومات (حضير الكتائب) من جراحة لحقته فى هذه الحرب وهو سيد الأوس فقال (خفاف بن الندبة) يرثيه :

أتانى حديث فكذبتُه .. وقيل خليلك فى المرمسِ
فياعين بَكّى حضير الندى .. حضير الكتائب والمجلسِ

وقيل فى هذا اليم شعر كثير من الجانبين وهو الشعر الذى حاول اليهود إفساد مابين الأوس والخزرج بعد أنْ صاروا أنصار الله فى الاسلام إذأ تخذ واحد منهم ينشده فى أحد مجتمعاتهم ليهيج الشر وكاد يفلح لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم فاسرع اليهم مذكرا بالله ونعمة الاسلام والأخوة فيه ففاءوا واستغفروا الله وعانق بعضهم بعضا .

(٦) حرب الفجار الرابع أو الآخر بين قريش ومعها كنانة كلها - وهوازن وهذه الحرب كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة وقد شهدها عليه السلام وهو ابن أربع عشرة سنتمع أعمامه وقال

فيها : (كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار (أى أنا ولهم النبـل)
وأنا ابن أربع عشرة سنة والذى هاج هذه الحرب أن رجلا خليعـا
من بنى كنانة اسمه البراض بن قيس الضمرى) قتل غدرا سيد هوازن
(عروة الرحال) وهرب فأجمعت هوازن أمرها على ان تقتـــل
بعروة سيدا من سادات قريش لأن البراض خليع وليس كفئا لعروة ،
فامتنعت قريش وقامت الحرب بين الفريقيـــن .

وسبب قتل (البراض) (عروة) أنهما كانا عند (النعمـــان
بن المنذر) ملك الحيرة ، وكان يبعث فى كل عام لطيمة (١) الـى
سوق عكاظ فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها لـــه (٢)
حتى تباع ويشترى له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه ـ وكـان
النعمان قد جهزها وعنده هذان الرجلان فقال : من يجيرها ؟ فقال
البراض بن قيس) : أنا أجيرها على بنى كنانة) فقال النعمـــان :
ما أريـد الا رجلا يُجيرها على أهل نجد وتهامة . فقال (عـــروة
الرحال) ـ وهو يومئذ رجل هوازن ـ أكلب خليع يجيرها لك أبيت
اللعن ؟ ! أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم فى أهـــل
نجد وتهامة ، فقال البراض : أعلى بنى كنانة تجيرها ياعـــروة ؟
قال : وعلى الناس كلهم . فدفعها النعمان الى عروة فخرج بهـا
وتبعه البراض ، وانتهز منه غرة بعد أن شرب خمرا ونام فعدا عليـــه
فقتله بسيفه واستاق اللطيمة هاربا بها ، وقامت على أثر ذلـــك
الحرب بين هوازن المطالبة بالثأر وكنانة ومنها قريش وجرت فيها خمسة
ايام كبيرة (وقائع) هى : يوم نخلة ويوم شمطة ويوم العبلاء ويوم شـرب
ويوم الحريرة واستغرقت هذه الوقائع أربع سنين وكانـــــــت

(١) اللطيمة عير تحمل المسك وغيره للتجارة . (٢) يحميها .

ويوم شرب ويوم الحريرة واستغرقت هذه الوقائع أربع سنين وكانت الحرب سجالا(١) بين الفريقين ثم تداعى الناس الى السلم وكفت الحرب وتعاهدوا على ذلك .

وقد قيل فى هذه الحرب شعر كثير منه قول (البراض) يصف قتله لعروة وما نطق ؟ من المناشدة حين أحس به هاجما عليه على غرة :

قد كانتِ الفَعْلةُ منى ضَلَّةْ ∴ وكانت القولةُ منى زَلَّةْ
هلا على غيرى جعلتَ الزلة ∴ فسوف أعلو بالحسام القلة

وقول (خداش بن زهير) فى يوم العبلاء وكان لهوازن على قريش .

ألم يبلغك ما لقيتْ قريشٌ ∴ وحيُّ بنى كنانةَ إذْ أُبيروا (٢)
دهمنا همْ بأرعنَ مكفهرٍ ∴ فظلَّ لنا بعقوتهم زئيرُ

وقد قتل فى هذا اليوم (العَوَّامُ بنُ خُوَيْلِد) والد (الزبير بن العوام) الصحابى الجليل فقال رجل من ثقيف :

منا الذى ترك العوام منجدلا ∴ تنتابه الطير لحما بين أحجار

وفى يوم (شرب) انتصرت قريش على هوازن فقال (عبد الله بن الزبعرى) يذكر بلاء بنى المغيرة :

ألا لله قومٌ و ∴ لدتْ أختُ بنى سَهْمْ
هِشامٌ وابو عَبْد ∴ مَنَافٍ مِدْرَهُ الخَصْم

---

(١) أى متكافئة (١) أهلكوا

وذو الرمحين أشباكْ .. من القوةِ والحزمْ
فهذان يذودانِ .. وذا عن كثب يرمى

وقال آخر :

جاءت هوازنُ أرسالا وإخوتُها .. بنو سُليْمٍ فهابوا الموتَ وانصرفُوا
فاستُقْبلوا بِضرابٍ فضّ جمعهمُو .. مثلِ الحريق فماعاجوا ولاعطفوا

(٧) يوم حليمة بين (المناذرة) ملوك الحيرة و(الغساسنة) ملوك الشام وكانت الحروب بينهما لا تكاد تنقطع يستنجدهم إليها الفرس مرة والروم أخرى وقد اتفق (المنذر بن ماء السماء اللخمى) و(الحارث بن أبى شمر الغسانى) فى أحد هذه الحروب على تناجز أبنائهما (1) فلما ذا فنوا تناجزا هما أنفسهما وتولى ملك الفريقين من غلب ، ولكن المنذر غدر بالحارث ، فأمر بعض الشجعان من غير أبنائه بمناجزة أبناء الحارث ، وعلم بذلك الحارث فأغضبه وأراد ان يكافئه غدرا بغدر فندب الحارث من أصحابه مائة رجل تخيرهم بنفسه وقال لهم : انطلقوا الى عسكر المنذر فأخبروه أنا نقبل شروطه للصلح ونعطيه مايحب فاذا رأيتم منه غرة فاقتلوه ، وأمر ابنته (حليمة) - وكانت من أجمل النساء - أن تخرج اليهم فتطيبهم من قارورة طيب وقيل : ان الحارث وعد من يقتل النعمان بتزويجه من حليمة ،فمضوا ونفذوا الخطة وقتلوا المنذر وانفلتوا راجعين ، وكان لتحميس حليمة لهؤلاء الرجال الاثر الكبير

---

(١) أهلكوا . (١) التناجز : المبارزة

فى انتصارهم على جيش المنذر فنسب اليوم إليها ،وبه يضرب المثل فى الأمر المشهور فيقال : "مايوم حليمة بسر "

(٨) (يوم ذى قار) بين العرب والفرس

(ذو قار) ماء قريب من شاطئ الفرات عند البصرة كانت قبائل بكر ترده فى الصيف هربا من شدة الحر فى بلادهم وهو فى منطقة نفوذ الفرس ، وقد وقعت فى هذا المكان الحرب المشهورة بين العرب ممثلين فى قبيلة بنى شيبان ومعها سائر قبائل (بكر بن وائل) وبين الفرس ممثلين فى جيش أرسله (كسرى) ملكهم لتأديب (بنى شيبان) لرفضهم تسليم ودائع (النعمان بن المنذر) التى عندهم الى رسل كسرى .

وكان (النعمان) وهو أبو قابوس ممدوح النابغة الذبياني - ملكا على (الحيرة) خاضعا لسياسة كسرى داخلا فى نفوذه كما أشرنا من قبل ولكنه خالفه فى بعض الأمور ،فغضب عليه كسرى الذى كان من دأبه التعالى على العرب وازدرائهم ،واستدعى كسرى النعمان إلى المدائن عاصمة ملكه فى بلاد فارس ليحاسبه على جريرته عنده وإن أظهر غير ذلك فأحس النعمان بالخطر الذى يتهدد حياته إن هو وفد على كسرى ،وعلم أنه لا يتورع عن قتله ، فغادر الحيرة بأهله ومتاعه ولجأ إلى قبائل العرب ليجيروه ويحموه ،فكانوا يعتذرون عن ذلك مخافة من غضب كسرى الذى خبروه طاغية جبارا وعاهلا لدولة كبرى فى العالم حينئذ ،ولكن (هانئ بن قبيصة الشيبانى) سيد بنى شيبان إحدى قبائل

بكر أجار النعمان فأقام فى كنفه وحمايته مدة ،ثم بدا للنعمان بعد أن استشار - أن يفد على كسرى معتذرا عن ذنبه مؤملا فى عفوه الذى وعده به من قبل ،فأودع أهله وسلاحه وأمواله عند (هانىء) وقدم بلاد فارس ،فلما أدخل على (كسرى) أمر هذا به فرمى تحت أرجل الفيلة حتى مات ، ثم أرسل كسرى الى (هانى بن قبيصة) يأمره بتسليم ودائع النعمان الى مندوبه ، فرفض هانىء وقال : لرسول كسرى : انها أمانة ،والحر لايسلم أمانته " فغضب كسرى وعزم على الانتقام من بنى شيبان ، ولأنهم ممتنعون فى باديتهم ، أمهلهم حتى أنزلهم القيظ (1) بذى قار ، فلما نزلوه أرسل اليهم جيشا من الفرس يأمرهم بالجلاء أو تسليم ودائع النعمان فرفضوا كلا الأمرين ودارت الحرب بين العرب والفرس وكانت شديدة طاحنة ، وأخرج هانى أسلحة النعمان وفرقها على قومه فاستعانوا بها على حرب الفرس وتوافى الى بنى شيبان اخوانهم من قبائل بكر يشدون أزرهم فدارت الدائرة على الفرس وهزموا هزيمة ساحقة وولوا الأدبار وانتصر العرب انتصارا رائعا رنّ صدا ، فى أرجاء شبة الجزيرة وفرح به العرب جميعا وأصبح يوم ذى قار يوما خالدا فى تاريخهم ووافق يوم ذى قار أوائل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ونوّه به عليه السلام بقولة : "اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا " وقيل شعر كثير فى هذا اليوم لاسيما وهو يوم فخر للعرب جميعا .

---

(1) القيظ : شدة الحر

ومن ذلك قول (عديل بن الفرخ العجلى) :

ماأوقد الناس من نار لكرمة .. إلا اصطلينا وكنا موقدى النار
ومايعدون من يوم سمعت به .. للناس أفضل من يوم بذى قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة .. لما استلبنا لكسرى كل إسوار (١)

وقول (الاعشى) الشاعر الجاهلى الكبير من قصيدة طويلة :

وجند كسرى غداة الحنوصبحهم .. مناغطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة (٢) شهباء (٣) يقدمها .. للموت لاعاجز فيها ولا خرف
فرع نمته فروع غيرنا قصة .. موفق حازم فى أمره أنف (٤)
لما أمالوا إلى النشاب (٥) أيديهم .. ملنا ببيض فظل الهام (٦) يختطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم .. حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا .. ليعرفوا أننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندى (٧) يحصدهم .. ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو أن كل معد (٨) كان شاركنا .. فى يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف

---

(١) الاسوار : قائد الفرس

(٢) كتيبة متماسكة (٣) اختلط فيها بياض السيوف بسواد الرماح

(٤) ذو أنفة (٥) السهام (٦) الرؤس (٧) السيف المنسوب الى الهند (٨)

(٨) معد بن عدنان جد قبائل العرب العدنانية .

ولعلك قد لاحظت مما سبق أن العربي في البادية كان حظه من الحرية أوفر من أخيه في الحضر ، إذ كان الحكم في الممالك الحضرية استبداديا (دكتاتوريا) — وكان وراثيا غالبا — يتمتع الملك فيه بجميع السلطات ، وهو النمط الذي كان سائدا في العالم كله قبل الاسلام . أما في البادية فلم تكن هناك حكومة مركزية — كما أشرنا من قبل — اللهم الا سلطة القبيلة ، وهي سلطة شرفية اكثر منها حاكمة .

وحين أريد للبادية أن تقتبس النظام الملكي في بعض قبائلها الكبرى أخفق هذا النظام اخفاقا واضحا ، فهذا (حجر بن الحارث الكندي) أبو الشاعر (امرئ القيس) ملك على (بني أسد) فلم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه ، لظلمه وتشدده في أخذ الاتاوات منهم وهذا (كليب بن ربيعة) ملكته قبائل (وائل) عليها بعد أن أظهر بطولة في وقعة (الزويرين) ثم ما لبث بنو عمه من (بكر) أن قتلوه بعد أن ضاقوا بغطرسته واستبداده ، وهذا (عمرو بن هند) ملك الحيرة حينما بسط نفوذه على بعض قبائل البادية ، وبدرت منه منه بادرة تكبر واستعلاء على بعض أشرافهم قتله واحد منهم وهو الشاعر (عمرو بن كلثوم) في القصة المشهورة التي سجلها في معلقته النونية .

فالحرية والاستقلال إذن كانا من أخص خصائص الحياة عند أهل البادية ، أما الحضريون فكانوا خاضعين لنمط الحكم المطلق

(الدكتاتورى) متأسين فى ذلك بالامم المجاورة لهم ولاسيما الفرس والروم ، ولكن على الرغم من تفرق العرب سياسيا على الصورة التى وضحناها هنالك، ورغم أنفة أهل البادية من أن يكون لهم ملك يخضعون له ، فقد كان يجمعهم شعور عام مشترك تجاه الأحداث الكبرى التى تمر ببعضهم فى أى جزء من شبه الجزيرة شعور الدم الواحد واللغة الواحدة ، والفكر الواحد ، شعور الانتماء الى أمة واحدة ، يرجون جميعا لها العزة والرفعة ، ويفرحون أعظم الفرح لما يصيبها من خير ، ويأسون أعظم الأسى لما يحل بها من شر.

وليس أدل على ذلك من ذلك الشعور الجارف بالفرح الذى عمهم فى أعقاب الأحداث الثلاثة التالية :

(١) حادث انهزام (أبرهة) الحبشى عندما زحف بجيش عرمرم الى مكة ليهدم الكعبة فارتد خائبا وهلك هو وجيشه عام ٥٧١ م وهو العام الذى ولد فيه رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

(٢) حادث استرداد (سيف بن ذى يزن) لملكه ، وتحريره وطنه (اليمن) وانتصاره على العدو الحبشى المحتل حوالى عام ٥٨٠ م فقدمت الوفود اليه من شتى نواحى شبه الجزيرة للتهنئة والمشاركة فى الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة .

(٣) حادث انتصار (بنى شيبان البكريين) على الفرس فى يوم (ذى قار) المشهور حوالى عام ٦٢٥ م ، والذى أشرنا إليه آنفا .

وكأنما كان هذا الشعور المشترك إرهاصا بعهد جديد قريب تجتمع فيه كلمتهم ، ويتوحدون تحت راية الاسلام .

وبينما كنت ترى فى البادية مظاهر (البداوة) من خشونة[1] وفقر ، وصراحة وجراءة ،كنت ترى فى الحضر تنعما ورغدا فى العيش وتحفظا فى القول والفعل ، وقد شاع التعامل (بالربا) وبخاصة فى المدن حتى صار ظاهرة اقتصادية متمكنة ، يلجأ الفقراء اليه مضطرين ، ويزدادبه غنى الأثرياء المستغلون ،وكانت (الأسواق) الموسمية مثل : (عكاظ[2]) تلعب فى حياتهم الاقتصادية دورا كبيرا ،يجلبون لها البضائع من مختلف النواحى ، ويفد إليها العرب من شتى الجهات حيث يبيعون ويشترون ،ويتبادلون السلع والمصالح ، ويتنافسون فى الربح ، فيعوضون بالتجارة حرمانهم من الزراعة ،وزهدهم فى الصناعة[3] .

وكان شرب الخمر عادة موجودة فى بدوهم وحضرهم وإن كان فى الحضر أكثر ، أما (لعب الميسر) و(السباق على الخيل) فكانوا

---

(١) وقد شاكل حياتهم فى الخشونة كثير من أسمائهم مثل : ضرار وحرب ، وصخر ،وجزم ، وخثعم ،وحنظلة وكلب ويربوع ، و ضبة وأسد وثعلبة .

(٢) كان لهذه الأسواق دور آخر أدبى سيأتى الحديث فيما بعد إن شاء الله .

(٣) كانت صناعاتهم القليلة كالتجارة والحدادة يقوم بها الأجانب غالبا .

فى الاهتمام بهما ومزاولتهما على حد سواء ٠

وكان (حب الشرف والمحمدة) سمة مشتركة بين العرب جميعا صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، يبذلون فى سبيله الغالى والرخيص ، بل يبذلون أنفسهم وأرواحهم من أجل الحصول عليه ، ومن ثم كانت العناية بحفظ أنسابهم والتغنى بأحسابهم ، ومفاخر أسلافهم وكثرت بينهم المحاورات فى المفاخرات والمنافرات ٠

ولم تخل أخلاقهم من جوانب سيئة كالانانية والعناد الاحمق ، والغدر والقسوة ، والاندفاع الى الشر واللجاجة فيه ، والتشفى من العدو فى أسلوب وحشى كالمثلة بالقتيل [1] ولم تخل كذلك من جوانب طيبة أشرنا اليها ، كالغيرة على العرض ، وإباء الضيم والكرم والوفاء بالعهد والحلم وحفظ الامانة وتوقى الذم ، والاقدام فى الحرب ، والتضحية فى سبيل الواجب ٠

---

(١) كما فعل العبسيون فى التمثيل بقتلى الفزاريين فى حرب (داحس والغبراء) وكما فعل مشركو قريش فى التمثيل بقتلى المسلمين فى غزوة (أحد) ٠

ثانيا : الحياة الدينيـــــة :

(١) (الوثنيـــة[1]) :

وهى عبادة الصور والتماثيل وتسمى (الأصنام والأوثـــان) وهى صور (للملائكة) تخيلوها ، أو صور لقوم كانوا صالحين فلما ماتوا صنع قومهم صورا لهم تذكرهم بأعمالهم الصالحـــة من أجل الاقتداء بهم فيها ، ثم بتوالى الأجيال نســـوا ذلك وعظموها وأشركوها مع الله تعالى فى العبادة ولذلـــك سميت الوثنية شركا .

وقد سادت الوثنية وعبادة الأصنام فى معظم قبائـــل العرب فكانت هى الديانة الغالبة عليهم . وكانت تقـــوم الى جانبها ديانات أخرى قليلة الاتباع نسبيا كاليهوديـــة والنصرانية والمجوسية .

ولم تكن وثنية العرب من النوع المركب المعقد الراســـخ المرتبط بفلسفة معينة فى نشأة الكون وتطور الحياة كوثنيـــة قدماء المصريين ووثنية الاغريق بل كانت وثنية سطحية ساذجة لأنها كانت مشوبة بشيء من (الوحدا نيـــة) بقـــى لهم من ديانـــة (اسماعيـل وابراهيـم) عليهما السلام التى

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام فى فصل هجرة المسلميـــن الأولى الى الحبشة .

تعلمها العرب منهما حين بنيا الكعبة المشرفة كما أخذوا عنهما شريعة (الحج) (ولذلك كانوا يدعون أنهم على (ملة ابراهيم[1])
وقد حكى القرآن الكريم هذا عنهم فى أكثر من آية منها قول الله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله " (سورة العنكبوت آية : ٦١) . فهم مؤمنون بإله واحد خالق للكون ، ومع ذلك يعبدون الأصنام لتكون وسائط بينهم وبين الله - على زعمهم - وحكى القرآن ذلك أيضا عنهم اذ يقول الله تعالى : " والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم[2] إلا ليقربونا إلى الله زلفى " (سورة الزمر : آية : ٣)

وهذا الجهل منهم فى التصور أداهم إلى إشراك هذه الأصنام مع الله فى العبادة ومع هذه العقيدة المهزوزة الفاسدة التى لا تقوم على حجة أو منطق سليم كانوا شديدى التمسك بها والتعصب لها ، على اعتبار أنها تراث مقدس عن الآباء والأجداد الذين كانوا يعظمونهم ويعتقدون فى رجاحة عقولهم ، فكيف يخالفونهم أو يتخلوا عما كانوا عليه ؟ " بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون " (سورة الزخرف آية ٢٢) .

وكان للوثنية مراكز عامة منتشرة فى أنحاء شبة الجزيرة ، كل

---

(١) المرجع السابق

(٢) التقدير : " يقولون ما نعبدهم ... " الخ

مركز فيه صنم كبير مشهور ، مقام عليه بيت له سدنة وحجاب ، وهذه البيوت تسمى (الطواغيت) وكانت طوائف العرب تعظمها وتطوف بها ،وتنحر عندها ،على نحوماكانوا يفعلون (بالكعبة) مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها جميعا لكونها بيت ابراهيم ومسجده ، فكانت (مكة) أكبر مركز للوثنية فى شبه الجزيرة لغشيان العرب اياها فى موسم الحج عاما بعد عام ، ولقد أقام المشركون حول الكعبة الأصنام الكثيرة ، حتى روى أن عددها يم فتح الرسول مكة كان (ثلاثمائة وستين صنما) جعل النبى يَطْعَنها بقضيب فى يده فتسقط وهو يقول " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " .

وكان أكبر أصنام مكة (هبل) الذى كان مصنوعا من عقيق أحمر على هيئة إنسان ولما كسرت يده اليمنى وضا عتعوضته قريش عنها يدا من الذهب وهو الصنم الذى هتف (أبو سفيان بن حرب) باسمه ـ إذهو مشرك ـ فى وقعة (أحد) فقال : أعل هبل ! فرد عليه المسلمون بتوجيه من النبى الكريم : " الله أعلى وأجل " ، ثم صنم (العزى) وكان مقاما فى ضاحية من ضواحى مكة تسمى (نخلة) وكان لها بيت وسدنة من قبيلة (سليم) وقد هدمها (خالد بن الوليد) بأمر النبى بعد فتح مكة وكانت قريش وكنانة تعظمان العزى وقد هتف باسمها كذلك أبو سفيان فى أحد فقال مخاطبا المسلمين " لنا العزى ولاعزى لكم " فرد المسلمون " الله مولانا ولا مولى لكم "

ومن الاصنام المشهورة عند العرب (اللات) وكانت مقامة بمدينة (الطائف) ، وكانت من صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت له أستار وسدنة ، ولها فناء يعظمونه ، وكانت قبيلة (ثقيف) ومن تابعها تعبد هذا الصنم وتفتخر به على من عداها .

ومن أشهر أصنام العرب العامة (مناة) وكانت منصوبة على ساحل البحر الاحمر فى مكان يسمى (المشلل) عند (قديد) بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعا تعظمه ، وتذبح له ، وكان أشد القبائل تعظيما له (خزاعة) و(الاوس) و(الخزرج) ، وكان المشركون يقسمون بهذه الاصنام ، فيقولون : واللات والعزى .. وحق مناة .. وقد سموا : عبد العزى وعبد مناة وتيم اللات .. وقد ورد ذكر الاصنام الثلاثة الاخيرة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : " أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى " سورة النجم آيتا : ١٩ ، ٢٠) ـ وكان الى جانب الاصنام العامة أصنام خاصة فلكل قبيلة صنم خاص يعبده أفرادها ، بل فى كل بيت تقريبا وخاصة فى المدن صنم صغير يتبرك به أهل الدار ، فاذا أراد صاحب البيت سفرا كان آخر شئ يفعله قبل رحيله أن يتمسح بهذا الصنم ، فاذا قدم من سفره كان أول شئ يفعله أن يتمسح به كذلك !!

ومن الاصنام الخاصة بقبيلة أو أكثر :

(ذو الخلصة) : لقبائل دوس وخثعم وبجيلة اليمنيات . و(قلس) ،

لقبلية طيء بنجد وكان مقاما بين جبلي أجا وسلمى ، و(ريام) في صنعاء اليمن ، و(رضاء) في ديار بني ربيعة بن كعب من تميم في أرض اليمامة .

وكان من طقوس عبادة العرب للأصنام دعاؤها في الشدائد والابتهال اليها والتمسح بها والطواف حولها ، والذبح عندها والاستقسام عندها بالازلام (١) ، وتقديم الهدايا لها من مال وطعام وذبائح تقربا إليها ، وكل هذا يأخذه سدنتها ، وكان الوثنيون منكرين للبعث والحساب والجزاء .

ومبدأ الوثنية في بلاد العرب مجهول ، فيقال إن منشأها كان من استصحاب من يسافر من أهل مكة حجرا من البيت الحرام يتبرك به حيث كان ، ثم تطور ذلك إلى تعظيم هذه الحجارة وعبادتها ويرى أن أول من جلب التماثيل ونصبها حول الكعبة رجل من (خزاعة) التي كانت تلي أمر البيت الحرام قبل (قريش) يسمى (عمرو ابن لحي الخزاعي) حين سافر الى الشام للاستشفاء فرآها هناك وأعجبته فاشترى عددا منها وجاء بها إلى مكة وأغرى أهلها بعبادتها فعبدوها ، ثم قلدهم بقية العرب في أنحاء شبه الجزيرة ، على

---

(١) هي قداح موضوعة في خريطة مكتوب على بعضها (افعل) وعلى بعضها الآخر (لاتفعل) فاذا أراد أحدهم شيئا كالسفر مثلا ذهب إلى سادن الصنم فأخرج له أحدها فعمل بما يأمر به .

أن الوثنية كانت شائعة فى العالم كله من عهود ضاربة فى القـــدم وترجع الى عهد نوح عليه السلام كما أخبر بذلك القرآن الكريـــم (١) وحاربها جميع رسل الله عليهم السلام ولكنها لم تلق الضربـــة الحاسمة إلاّ على يد الاسلام ، فلقدقضى الإسلام على الوثنية فـــى شبة جزيرة العرب قضاء تاما بحمد الله ، فأنقذهم من تلك العقيدة الفاسدة وطهر بلادهم من تلك الوصمة الشائنة للعقل البشـــرى فأصبحت منهج (التوحيد) والعقيدة الصالحة والدين الخالــص لله رب العالمين ،على يد محمد رسول الله وخاتم النبيين ، ثـــم أخذت معاقل الوثنية تتساقط فى أنحاء الكرة الأرضية تباعا علـــى أيدى العرب المسلمين بانتشار الدعوة الاسلامية فى العالم حـــتى لقد قضوا على وثنية (الترك) عند أقاصى الصين والهند شرقـــا وعلى وثنية (البربر) عند أقاصى مراكش والأندلس غربا ، وعلجـى وثنية الجم الغفير من القبائل الإفريقية جنوبا والآسيوية شمالا .

أما الديانات الأخرى التى كان يتبعها قلة من العرب والتـــى كانت تعيش الى جانب الوثنية فى شبة الجزيرة فأهمها :

(٢) (اليهوديــة) : وقــد وفدت على شبة الجزيرة من الشـام واستقرت حول يثرب ثلاث من قبائل اليهود هم : (بنوقينقاع) و(بنو النضير) و (بنوقريظية) وعاشوا فى ضواحيها مجاوريــن للأوس والخزرج ،وانتشر فريق منهم فى أرض خصبة قريبـــا من يثرب يزرعونها هى (فدك) و(خيبر) وكانوا منطويـــن

على أنفسهم ، يبنون بيوتهم على هيئة حصون منيعة ،ويترفعون على الوثنيين ويدلون عليهم بأنهم أهل كتاب سماوى وأصحاب علم ويستغلونهم ما استطاعوا ويضربون بعضهم ببعض ويستحلون الكذب عليهم وغشهم وأكل أموالهم بالباطل ،كما ذكر القرآن الكريم " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " (سورة آل عمران ،آية : ٧٥)وكانوا يتحدثون اليهم عن نبى سيبعث قريبا يجدونه فى التوراة - وكانوا يتوقعون أنه سيكون منهم - وأنهم سيتبعونه وينصرونه ويقتلون تحت رايته أهل الشرك والوثنية ، فلما بعث محمد رسول الله من العرب حسدوه وحنقوا عليه أنه ليس من بنى اسرائيل فكفروا به ، وعاندوه، بينما آمن به الأوس والخزرج ،على أن أفرادا قلائل منهم آمنوا و دخلوا فى الاسلام كما دخلت اليهودية الى (اليمن) فى أعقاب دخول (بلقيس) ملكة سبأ فى دين (سليمان) عليه السلام الذى كان امتدادا لشريعة (موسى) عليه السلام ويبدو أنها كانت محصورة فى فئة قليلة من أهلها ، فلما اعتنقها الملك الحميرى (ذونواس) تعصب لها وعمل على نشرها فى اليمن ، وكان فريق من اليمنيين وهم أهل (نجران) قد دخلوا فى (المسيحية) فاضطهدهم وأوقع بهم فى مذبحة وحشية ،مما أغضب الملكين المسيحيين : قيصر الروم ونجاشى الحبشة ، فأرسل ثانيهما بتأييد من الأول جيشا لغزو اليمن بقيادة (أرياط) الذى احتل اليمن فعلا وقضى على ملك ذى نواس وخلفه القائد (أبرهة) المشهور صاحب الفيل .

(٣) (النصرانية) : وقد انتشرت في (نَجْران) باليمن كما قدمنا ويبدو أنها وفدت اليها من الحبشة بحكم الجوار والعلاقات التجارية التى كانت تصل بين البلدين ثم ازدادت تمكنا بالحكم الحبشي لليمن ، كما انتشرت في أطراف شبة الجزيرة الشمالية المجاورة للروم في قبائل (غسان) و (قضاعة) ومن هناك انتشرت شرقا في قبيلة (تغلب وأنتقلت منها الى (الحيرة) في أطراف العراق وتمكنت فيها على أثر تنصر (النعمان بن المنذر) ملكها .

(٤) (الصابئة) : وهم عباد الكواكب ، ويبدو أن اسمهم مأخوذ من صبأ النجم صبوءا اذا طلع [1] لأنهم كانوا يترقبون طلوع النجم ليعبدوه ، قال صاحب القاموس [2] " والصائبون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام " والظاهر أن أصل ذلك اهتمام قوم نوح وهم في السفينة بالنجوم ، وتطلعهم اليها بالليل للاهتداء ، لانهم كانوا من الطوفان في بحر لجي لا ساحل له وأمواج كالجبال ، ثم انحرف الأعقاب عن ذلك الى تعظيم النجوم وعبادتها ، وقيل ان مصدر هذه الديانة بابل القديمة .

وقد وجد الصائبون في اليمن ، وقد عبدوا الشمس وكانوا

---

(١) راجع القاموس المحيط مادة (صبأ) .

(٢) مجد الدين الفيروز ابادى المتوفى عام ٨١٧ هـ .

يسمونها (عشتر) وقد حدث القرآن الكريم أن (بلقيس) ملكة سبأ وقومها كانوا يعبدون الشمس " وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله " (سورة النمل ،آية : ٢٤) وعبد فريق منهم القمر وكانوا يسمونه (المقلة) وعبدوا كوكب (الزهرة) واسمه عندهم (ود) ، وعبد بعضهم هذه الثلاثة ، وجعلوا منها ثالوثا يمثل الأب والأم والابن ، وتبعا لتعظيمهم الشمس عظموا بروجها الاثنى عشر[1] كما عظموا الكواكب السبعة السيارة .

وهى : عطارد الزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل وأورانوس

(٥) (المجوسية) وهى عبادة النار وقد وجدت فى بعض المواطن القريبة من العراق حيث تسربت اليهم من الفرس وهم مجوس وكانوا يجعلون للنيران بيوتا خاصه يمارسون عبادتهم فيها .

(٦) (الحنفاء)[2] أو الموحدون ، وهم قلة من عقلاء العرب وحصفائهم وأفراد معدودون أنكروا وثنية قومهم حينما رأوها لا تتفق مع العقل ،ونظروا فى الأديان الأخرى فلم يرتاحوا الى مافى بعضها من خلط وتحريف ، وما فى سائرها

---

(١) وهى : الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والعذراء والسنبلة .

(٢) من الحنف بالحاء المهملة وهو ميل من الضلال الى الاستقامة وضده الجنف بالجيم المعجمة وهو ميل من الاستقامة الى الضلال .

من جور وفوضى ، فرفضوا ذلك كله ، وأقروا بواحدانية الله تعالى الخالق للكون المصرف للأمور ،مطمئنين الى أن الوحدانية هى دين ابراهيم الصحيح منتظرين مبعث ﷺ آخر الزمان الذى بشرت به الكتب السماوية السابقة ، الذى سيهدى الله به الانسانية وينقذها من تخبطها فى الدين ،ليؤمنوا به وينصروه ،ومن هؤلاء :(ورقة بن نوفل)،(قس بن ساعدة الإيادى) (وأميه بن الصلت)،وزيد بن عمرو بن نفيل ، ومن شعر الأخير المعبر عن هذه الفئة :

أربا واحدا أم ألف رب .. أدين إذا تقسمت الأمورُ ؟!

تركت اللات والعزى جميعا .. كذلك يفعل الرجلُ الخبيرُ

ثالثا : الحياة العقلية :

لم يكن العرب على وجه العموم أولى ثقافة واسعة ،أو علوم منتشرة بل كانت الصبغة الغالبة عليهم أنهم أمة أمية محدودة الثقافة ساذجة المعرفة محرومة من العلم إلاقليلا .

وهذا القول منطبق تماما على داخل شبة الجزيرة وعلى الغالبية الكبرى من سكانها ولكنه غير منطبق على عرب ممالك الأطراف .

ففى (اليمن) كانت هناك علوم وفنون ومعارف إنسانية راقية ، مثل إقامة السدود ، وتنظيم الزراعة والرى ، وهندسة البناء

ورصد النجوم ، وهيأ لها ذلك نشأة حضارة على أرضها ذات الموقع الممتاز واتصالها بالحضارات المعاصرة لها ولاسيما الحضارات الحبشية والمصرية والهندية •

وفى أطراف الشام والعراق كنت تجد شيئا مثل ذلك من العلوم والفنون التى أعان على وجودها فى كليهما نشأة ونمو الحضارة فى (مجتمع زراعى) على ضفاف نهر أو داخل فى حوضه، وتبادل التأثير مع الحضارات المجاورة من رومانية وفارسية •

فاذا عدنا الى محاولة استكشاف الحياة العقلية لدى الغالبية العظمى من العرب القاطنين فى داخل شبة الجزيرة وبحثنا عن هذا الحظ القليل من العلم والمعرفة لديهم وجدناه يكاد ينحصر فى مصدرين :

أ - معارف تسربت اليهم من ممالك الأطراف المشار اليها والتى تربطهم بها صلات كثيرة •

ب - معارف اهتدوا اليها بأنفسهم ، واكتسبوها من التجارب التى مرت بهم فى حياتهم ، ومن احتكاكهم بالطبيعة القاسية فى بيئيتهم ، وأعانهم على تأصيلها فى مجتمعهم ذكاء فطرى ، وملاحظة دقيقة ، وحس مرهف ، واليك جانبا من هذه المعارف •

(١) علم الأنساب : كان للعرب اهتمام بالغ ، وعناية فائقة بمعرفة الأنساب ، وأصول كل قبيلة وفروعها ، لأن النسب مناط عزهم التالد ، ومرجع فخرهم البالغ ، على عادتهم فى تعظيم الآباء وتمجيد أعمالهم ، وتخليد بطولاتهم ومواطن شرفهم ، وأيضا لحاجتهم الى معرفة الأنساب فى عقد المحالفات ، والتماس النصراء ، مما حدا بكل عربى الى أن يحفظ نسبه كاملا بدءا من ابيه وجده الأول حتى يصله برأس القبيلة - ثم مافوق ذلك من معرفة (الشعب) الذى تفرعت منه القبيلة ، ومما أوجب على كل قبيلة أن يكون لها (نسابة) عالم بالأنساب ، ليكون مرجعا لهم عند الاختلاف ومرشدا لهم عند الاشتباه ، ومن خصائص هذا النسابة أن يكون له علم كذلك بأنساب القبائل المجاورة ، ومواطن الثغرات فى تلك الأنساب ان كانوا من الأعداء ، ثم يكون له علم كذلك بأنساب العرب كافة مع التوسع والتثبت وهذه المنزلة بلغها ونبغ فيها أفراد كثيرون من النسابين اشتهروا فى أنحاء شبة الجزيرة كلها ، فصاروا مرجعا للعرب جميعا لا لقبائلهم فحسب ومن أشهر هؤلاء (دغفل بن حنظلة البكرى " وكان حجة متبحرا وبه ضرب المثل عند العرب فقالوا : " أنسب من دغفل " وقد أدرك الاسلام وأسلم وكان يلقب (بالعلامة) وتروى عنه العجائب فى

معرفة دقائق أنساب العرب (1) ومن علماء النسب (أبو بكر الصديق) رضى الله عنه .

ب ـ الطب : عرف العرب أشياء من علم الطب العملى المكتسب من التجارب ، توارثوه عن الآباء والأجداد ، وأشياء أخرى نقلوها واستفادوها من الأمم المجاورة ، فمن ذلك العلاج بالأعشاب النباتية ، وبتناول عسل النحل ، وبالكى بالنار للعضو المصاب ومن أمثالهم المشهورة " آخر الدواء الكى) وعرفوا العلاج بالفصد والحجامة ، وبتر العضو الميئوس من شفائه ، ومن أشهر أطبائهم (الحارث بن كلدة) ـ بفتح الكاف واللام ـ الثقفى بالطائف ، وكان قد رحل الى بلاد فارس واستفاد من طبها ، وقد أدرك بالاسلام وأسلم و (ابن حِذْيم) بكسر الحاء وسكون الذال وكان نطاسيا بارعا وهو من قبيلة (تيم الرباب) .

وفى الكلام العربى كثير من أسماء الأمراض ، وكثير من أسماء العقاقير العلاجية ، وفى ذلك دلالة على العلم بقدر لا بأس به من الطب الوصفى والعلاجى ، كما فيه أسماء

---

(1) راجع جانبا من أخباره فى (العقد الفريد) جـ ٣ ص ٢٧٥ ومابعدها الطبعة المشار اليها سابقا .

لكل أعضاء الجسم البشرى الظاهرة والباطنة ، وفى ذلك دلالة أخرى على إلمام بفرع من فروع الطب وهو علم التشريح .

(٣) (بيطرة الدواب) (١) :

وهو علم معرفة أمراض الدواب وطرق علاجها وكانوا فى حاجة ملحة الى هذا العلم لمداواة أنعامهم وبخاصة (الإبل) التى هى عماد حياتهم ، و(الخيل) التى هى عدتهم فى حروبهم ، ومن ذلك عزلهم البعير المصاب بداء (الجرب) عن القطيع حتى لايعديه ، قال شاعرهم (طرفة) :

الى أن تحامتنى العشيرةُ كلُّها .. وأُفْرِدتُ إفرادَ البعيرِ المُعَبَّدِ

هذا من جهة الطب الوقائى أو الحجر الصحى ، ثم دهن البعير المصاب بهذا المرض اللعين بالهناء (بوزن كتاب) وهو القطران ليشفى قال (دريد بن الصمة) وقد رأى الشاعرة (الخنساء) وهى شابة صغيرة تقوم بهذا العمل : (٢)

---

(١) صنعة معالج الدواب وهو بَيطِرُ وَبَيْطَرْ ، وبيطار ، وبَيَطْر . انظر القاموس المحيط .

(٢) راجع القصة والابيات بتمامها فى الشعر والشعراء لابن قتيبة وفى الاغانى لابى الفرج الاصبهانى جـ/ ٩ ص ١٠ طبعة الساسى

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بِــــهِ .. كاليومَ طالِيَ أَيْنُقٍ جُرْبِ !!
مُتَبَذِّلاً تَبْدُو محاسِنُــــهُ .. يضعُ الهِنَاءَ مواضِعَ النُّقْبِ !!

(٤) (علم الفلك) :

ولما كانت حياتهم فى أسفارهم تعتمد على النجوم والكواكب فهى مصابيح السماء الهادية لهم فى ظلمة الليل ، المؤنسة لهم فى وحشته ،المنقذة لهم من الضلال والهلاك فى جوف الصحراء ، يحددون بها أماكنهم ويضبطون عليها اتجاهاتهم فى رحلاتهم المتواصلة عرفوا أسماءها ومواقعها ومداراتها ،وأزمان مطالعها ومغاربها وأعانهم على ذلك صفاء سمائهم على مدار العام فصفحتها مفتوحة أمام أعينهم ،الى جانب ما وصلهم من معارف الامم المجاورة التى عرفت بالاهتمام بالنجوم مثل (الكلدانيين) الذين سبقت الاشارة اليهم فى هذا المجال .

(٥) (الظواهر الجوية) : كما دفعهم اعتماد حياتهم على المطر إلى علم دقيق بكل مايتصل به من الظواهر الجوية كالرياح والسحاب والبرق والرعد وهو علم اكتسبوه بالخبرة الطويلة والممارسة الدائمة فعرفوا أوان كثرة المطر وأوان قلته ،وأوقات انعدامه ، وعرفوا أنواع السحاب

فهو إمّا ممطر ، وإما كهام لامطر معه والكل علاماته وعرفوا البرق الصادق وهو ما أعقبه الغيث (والخُلَّب) وهو الذى لا يصاحبه المطر فهو كاذب ،وعرفوا مهاب الرياح وأنواعها فمنها (الصَّبَا) وهى أفضل رياحهم ونسيمها عليل وتهب عليهم من الشرق من جهة نجد وتسمى أيضا القبول ،ومنها (الدبور) أو النعامى ، و (الشمال) و (الجنوب) والنكباء ،والزعزع ،والسوافى والحواصب والصرصر والعاصف والسموم .

(٦) (الملاحة) والعلم بها خاص بأهل الجهات الساحلية من شبة الجزيرة كسواحل اليمن وعمان والبحرين والفرات وذلك بحكم ظروف بيئتهم ومعايشهم التى تعتمد على الصيد ونقل السلع فى البحر للتجارة فعرفوا السفن وأنواعها وأجزاءها وكل مايتصل بتسييرها فوق الماء فمن ذلك : السفينة والماخرة والقارب والزورق والمجداف والسكان والجوء جوء والقلس والربان والنوتى قال طرفة :

كأن حُدُوجَ المالكية غُدْوَةً .. خلايا سَفينٍ بالنواصفِ مِنْ دَدِ
عَدَوْلية أومن سفين ابن يامن .. يَجُورُ بها الملاحُ طورًا ويهتدى
يشقُّ حبابَ الماءِ حيزومُها بها .. كما قسم التربَ المفايلُ باليد

(٧) (القيافـــة) وهى نوعان :

أـ قيافة الاثر ، ومعناها : تتبع آثار الاقدام للاستـدلال على أصحابها ، ومن ذلك ماصنعة القرشيون عندمـــا تتبعوا آثار أقدام رسول الله صلى الله عليه وأبــــى بكر الصديق رضى الله عنه فى الهجرة الشريفة حتـــى وصلوا الى (غار ثور) فأعماهم الله عنهما .

ولشدة حاجتهم الى القيافة فى الاهتداء الى مـــن يضل منهم أو يشرد من دوابهم ، ولممارستهم اياهـــا مهروا فيها ، ووجد منهم (قافـة) نوابغ كانوا يستطيعـو ن التمييز بين قدم الشيخ والشاب ، والرجل والمرأة ـ والبصيروالاعمــى ، والسليم والاعرج .

ب ـ قيافـة البشـر : وهى التمعن فى شكل الانسان وهيئتـة والاستدلال بهما وملامحه وصورة أعضائه على نسبه وقبيلته فإذا كان مجهول النسب ألحقوه بعشيرته فقالــــوا : هو من بنى فلان وربما ألحقوا الابن بأبيه ، والأخ بأخية

وقد اشتهرت قبيلة (قريش) بالبراعة فى هذه الخبـرة بين القبائـل .

(٨) (الفراسة) ومعناها : الاستدلال على أخلاق الإنسان ، فضائله أو رذائله بشكله وهيئته ، وهى خبرة تعتمد على شدة الذكاء ، وقوة الملاحظة ، وكثرة الاحتكاك بالناس والمجتمعات والتعرف على طبائع مختلف الأجناس ، ولهم فى ذلك علامات فى شكل الأنف والجبهة والعينين والأذنين والرقبة .. الخ ، ومنها نوع يعتمد على صدق الحدس والتخمين ، وصاحبه هو (الألمعى) وإليه يشير الشاعر بقوله :

الألمعىُّ الذى يظنّ بك الظنَّ .. كأنْ قد رأى وقد سمعا

ومن (الفراسة) نوع يعتمد على تفتح البصيرة ، وصفاء النفس وقوة الروح — وهذا النوع عرفه العرب بعد الاسلام — وإليه يشير الأثر " اتقوا فراسة المؤمن فانه يرى بنور الله " .

(٩) (الريافة) وهى معرفة أماكن وجود الماء فى باطن الأرض ، وهل هو قريب أو بعيد ، وهى خبرة اكتسبوها بكثرة الممارسة ودوام البحث عن الماء الذى هو أثمن شىء فى شبه الجزيرة ، ولكثرة ما يتعرضون له فى أسفارهم من فقدانه المؤدى الى الهلاك ولخبرتهم بأنواع التربة المختلفة وأيها أكثر حفظاً للماء ، ويهتدون الى هذه المعرفة بعلامات وأمارات قلما تكذب منها جس التربة وشمها ، لمعرفة مدى ليونتها وتشربها للماء أو جفافها وكذلك قياس درجة حرارتها بأيديهم ، ومنها عرق النبات إنْ وُجِد

لتقدير مدى طراءته أو يبوسته ،ومنها الاستدلال بوجود الطير فى مكان على وجود الماء بــه .

(١٠) (الكهانة والعرافة) : ومعنيان ادعاء معرفة الغيب والإخبار به سواء أكان ماضيا أو مستقبلا ، فهما بمعنى واحد ، وقيل ان الكهانة خاصة بالمستقبل ، والعرافة بالماضى ، وبعلاج بعض الأمراض المستعصية ولاسيما العصبية منها ، ونظرا لأمية العرب فى ذلك العصر وفشو الجهل فيهم ، راجت الكهانة والعرافة بينهم ،ولجئوا الى الكهان والعرافين فى مشكلاتهم التماسا لحلها عندهم .

وقيل : إن بعض هؤلاء كانوا يصيبون فى أقوالهم لاعتمادهم على النظر فى النجوم ، أو اتصالهم بالجن ، أو اتجاههم الى تنويم أنفسهم (تنويما مغناطيسيا) لتقليل سيطرة الجسم على النفس فتنكشف لهم بعض الحقائق ، فيبنون على القليل منها الكثير من عنديات أنفسهم ،وهذه الأمور لم تكن خاصة بالعرب ، بل كانت شائعة فى الأمم المجاورة لهم ،وقد تكون إصابة الكاهن او العراف مجرد صدفة ،فتنشأ عقيدة لدى الجهال بصدقه ومهارته ،ويذيع صيته ، ويقبل عليه الناس ،ويقعون فى حبائله ، فيلفق لهم الأقوال ، ويستعين بقرائن الأحوال ، وبذكائه وفراسته على التأثير فيهم وأخذ

أموالهم ، وقد قضى على الكهانة والعرافة بعد ان أشرق نور الاسلام على شبه الجزيرة ، ومن أشهر كهان العرب فى الجاهلية (شق بن أغار) و (سطيح بن مازن) ومن أشهر عرافيهم (رباح بن عجلة) فى اليمامة و (الابلق السعدى) فى نجد ، وإليهما يشير الشاعر فى قوله :

جعلتُ لعرافِ اليمامةِ حكمهُ ... وعرافِ نجدٍ إنْ هما شفيانى

(١١) (الاخبار والقصص) : كان فى العرب الجاهليين رحالون جابوا كثيرا من الاقطار المجاورة للتجارة وغيرها كالشام والعراق وفارس والروم ورأو كثيرا من مشاهد هذه البلاد وسمعوا كثيرا من قصصها وأخبارها ، فكانوا - بعد عودتهم من هذه الرحلات - يحدثون قومهم بما رأوا من عجائب هذه البلاد ، وما وعوا من تلك القصص والاخبار وكانت هذه الاحاديث والاخبار تمثل جانبا من معارفهم التاريخية والجغرافية والادبية فكان لدى عرب اليمن أخبار وقصص ملوكهم السابقين ، وحكامهم المشهورين من الاذواء والتبابعة [1] وأخبار الحبشة ثم فارس ، وكان عند أهل الحيرة أخبار المناذرة وجيرانهم من العجم (الفرس) ، وكان عند أهل (عمان) أخبار فارس

(١) الاذواء فريق من حكام اليمن يبدأ اسم كل واحد منهم بلفظ (ذو) مثل : ذى يزن .. والتبابعة جمع (تبع) وهو لقب حكام حمير وحضرموت .

والهند ، ولدى أهل (بصرى) أخبار الروم واليونان ، وكان لدى أهل المدن الداخلية - ولاسيما مكة - أخبار هؤلاء جميعـــا وقصصهم وأساطيرهم القديمة تأتيهم مع القاصدين الى البيت الحرام فى موسم الحج من كل عام ومن هؤلاء القصاصين الذين كانـــوا بمكة رجل من مشركى قريش اسمه (النضر بن الحارث بن علقمة بـــن كلدة) كان يستخدم قصصه فى مناوأة الرسول عليه السلام ، فكـــان - كما روت كتب السيرة -[1] اذا جلس النبى مجلسا فدعا فيه الى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن وحذر قريشا ما أصاب الأمم الخالية ، ثـــم قام ، خلفه النضر فى مجلسه فحدث قريشا عن رستم الصنديد ، وعـــن اسفنديار وملوك فارس ، ثم يقول : والله مامحمد بأحسن حديثـــا منى ، وما حديثه الا أساطير الأولين اكتتبها كما أكتتبها ، وقد قتـل النضر مع من قتل من المشركين فى غزوة بدر بعد ذلك ،

وكان فى عرب الجاهلية كذلك شيوخ حنكهم الدهر ، وعركتهـــم الحياة وطال بهم العمر ، قد سمعوا من الآباء والأجداد قصصـــا وأحاديث ، ووعوها وحفظوها ، فكانوا فى مجالس سمرهم يحدثـــون أقوامهم وشبابهم بما وَعَوْا وحفظوا من تلك القصص والغرائـــب ، لاسيما أخبار الحروب وأيام العرب القديمة المشهورة فتذيع وتصبح جزءا مـــن

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٤٤ ط المكتبة التوفيقية

معارفهم العامة .

(١٢) (إجادة القراءة والكتابة) وما يتبعها من معارف ثقافية وعلمية : وقد كانت الكتابة مزدهرة فى ممالك أطراف شبه الجزيرة ، تلك الممالك ذات الحضارات التى سبقت الاشارة اليها كاليمن ، وقد عُرف فيها الخطُّ (الحِمْيرى) (المسند) (والحيرة) وينسب اليها الخط الحيرى والأنبارى ، وأطراف الشام ، وعرف فيها الخط النبطى والسريانى ، أمَّا فى وسط شبه الجزيرة فكانت الكتابة معدومة فى البادية ، وموجودة بقلة فى المدن وبكثرة نسبية فى (مكة) ملتقى العرب ، وموطن زعامتهم الدينية وقد تعلم فريق من أهلها الكتابة وبعض ماتفيض من معارف كالقصص الذى كان يكتبه (النضر بن الحارث) الذى مر ذكره آنفا ، وأوليات (علم الحساب) وقواعده التى تضبط بها أحوال التجارة والديون وما الى ذلك اذ كان أهل مكة تجارا كما عرفت وهم فى حاجة ماسة الى ذلك ، ومن ثم فشت فيها الكتابة ، ومما يدعم هذا أن معظم أسرى (بدر) من مشركى قريش كانوا قارئين كاتبين ، وقد قبل النبى صلى الله عليه وسلم إطلاق سراح العاجزمنهم عن دفع الفداء فى مقابل أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، ويقال ان أول من علم أهل مكة الكتابة

رجل طارئ عليهم اسمه (بشر بن عبد الملك) من أشراف (دومة الجندل) (١) كان صديقا لـ (حرب بن أمية) وكان قد قدم مكة وصاهر (حربا) هذا وأقام في البلد الحرام مدة علم في أثنائها (حربا) وبعض القرشيين القراءة والكتابة ، ويرجح أنها كانت بالخط (النبطي) أو الكندي) المتفرع من (الحميري) والذي تطور بعد ذلك الى الخط (الحجازي) ، ثم (الكوفي) - بعد الاسلام - والى فضل (بشر) هذا في تعليم (اهل مكة الكتابة يشير أحد الشعراء بقوله مخاطبا إياهم :

فلا تنكروا نعماءَ بشرٍ عليكمو ... فقد كان ميمونَ النقيبةِ أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الاقلام عودا وبدأة ... وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا

وإذ قد عرضنا عليك أهم معارف العرب ، ومظاهر حياتهم العقلية في الجاهلية ، فلعلك قد لاحظت أنهم كانوا يرجعون فيها الى الفطرة والتجارب الطبيعية أو الاقتباس من الغير ، وأنه لم يكن لهم حظ من التبحر في علم أو بحث أو فلسفة (٢) كيف وهم أمة أمية ؟ ولكنهم على الرغم من ذلك كله قد أوتوا حظا من الحياة العقلية امتازوا به ، وكادوا يتفوقون به على أمم كثيرة ، ذلك هو بيانهم اللساني وأدب لغتهم

---

(١) مكان قرب الشام الى الشمال الشرقي من شبه الجزيرة فيه قرى تكون امارة صغيرة وقد نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا منه في غزوة (تبوك) سنة ٩ هـ .

(٢) اذا استثنينا ممالك الأطراف المتحضرة .

ولاسيما الشعر ، وقد آن الأوان لنتعرف معك على جوانب ذلك الأدب بتوفيق وعون من الله تعالى .

((الباب الثالث))

-=-=-=-=-=-=-

الشعر الجاهلي

(تمهيد) : أ - في الفرق بين الشعر والنثر :

الأدب إما شعر وإما نثر، فهما فرعاه الرئيسان، وجناحاه المحلقان.

فالشعر - بإيجاز - هو الكلام الجميل الذي يعتمد في تعبيره وفي تصويره للطبيعة والحياة على العاطفة والخيال أكثر من اعتماده على العقل والفكر، والذي يعتمد من حيث أجزائه الظاهره وشكله الخارجي على الموسيقى المؤتلفة المتناسقة (الوزن والقافية)، وسمي شعرا لارتباطه بالشعور والوجدان (١) والنثر (٢) - بإيجاز كذلك - هو الكلام الجيد المتحرر من القيود الموسيقية (الوزن والقافية) والذي يعتمد على العقل وبالفكر أكثر من اعتماده على العاطفة والخيال.

---

(١) وسمي نظما لأن الكلام ينظم فيه على نسق خاص كما تنظم حبات العقد في سلك.

(٢) ونعني به (النثر الفني) لا النثر التخاطب العادي بين الناس في معاملاتهم وسمي نثرا لأن الكلام فيه منثور مفرق كحبات العقد التي لم تنظم في سلك.

ب — اى الفنين أسبق وجودا ؟

انقسم الباحثون فى هذا الموضوع الى فريقين :

(١) فريق يرى أن النثر اسبق وجودا وهم عامة النقاد الاقدمين ومنهم على سبيل المثال : (أبو بكر الباقلانى) فى كتابه ، إعجاز القرآن ، و(ابن رشيق القيروانى) فى كتابه : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده وحجتهم فى ذلك : أن النثر مطلق ، والشعر مقيد ، والعقل يقضى بأسبقية المطلق على المقيد ، ويؤيد هذا الرأى بعض المحدثين (كالسباعى بيومى) فى كتابه : تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى والشيخين : (أحمد الاسكندرى) و(مصطفى عنانى) فى كتابهما : الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه .

(٢) وفريق يرى أن الشعر أسبق وجودا من النثر ، وهم أكثرية النقاد المحدثين ، من أمثال الأساتذة (أحمد امين) و (طه حسين) و(عبد الوهاب عزام [1] ، و(حامد مصطفى [2]) ونحن نختار الرأى الأخير ، ونلخص لك حجج أصحابه مضيفين إليها مدعمين اياها بما وفقنا الله تعالى من برهنة وتوضيح فنقول : إن الشعر أقدم الآثار الأدبية عند جميع الأمم والشعوب فشعر (هوميروس) عند الإغريق القدماء

(١) راجع التوجيه الأدبى لهم (٢) راجع تاريخ أدب اللغة العربية له

كان معروفا ذائعا ،ينشد فى المجامع ويغنى به قبل أن تظهر فنونهم النثرية ، وفرة الشعر الجاهلى فى الأدب العربى إذا قيس بالنثر الجاهلى القليل من الشواهد على ذلك ، ولاسبقيته الشعر أسباب كثيرة منها :

أ - أن الشعر لغة القلب ،وترجمان العاطفة ،ومرآة الوجدان وهذه الأشياء وجدت مع الفطرة فى عهود النشأة الأولى للإنسانية أما النثر فلغة العقل والفكر الناضج والتطور الحضارى ، وهذه الأمور تأتى فى عهود تالية ومتأخرة عن تلك العهود الأولى فى حياة البشرية .

ب- ان الشعر تعبير عن حاجات ضرورية للإنسان وغريزية فيه كحاجته الى إظهار فرحه أو حزنه فى المناسبات المختلفة وحاجته إلى الترويح بعد عناء العمل الكدح ، أو التخفيف من هذا العناء فى أثنائهما ،إذ كانت حياة الانسان فى بدئها شاقة قاسية حافلة بضروب المشقة والكفاح فى سبيل لقمة العيش ، ومن شأن الشعر وهو كلام رقيق موقع أن يحقق هذه الحاجات ، كما كان من شأن (الغناء أن يحققها ولذلك التقى الفنان : (الشعر والغناء) وارتبطا من قديم قديم فى عصور طفولة الشعوب وحاجتها وأُمّيّتها ويرجح أنهما نشآ معا أخوين توأمين ،يجمع بينهما قاسم مشترك هو (الموسيقا) .

اجتمعا معا تعبيرا عن الفرح والبهجة فى مناسبات السرور كالاعراس والانتصارات ، وتعبيرا عن الحزن فى المصائب والنكبات واجتمعا فى أغانى العمل تنشيطا للنفس ، وفى أغانى الحرب تهييجا للحماسة فى المحاربين ، وفى أغانى السفر دفعا للملل وإذهابا لوحشة الطريق . فالشعر حينئذ كان اشباعا لحاجات أساسية فى الإنسان ، وكان قرضه أمرا يشبه أن يكون طبعيا تلقائيا فهو غير محتاج لمستوى حضارى أو رقى فكرى أو ثقافى .

أما النثر فجاء بعد ذلك بمراحل ، لأنه تعبير عن حاجات الانسان المتحضر ، الذى حاز جانبا من الثقافة ، وقدرا من التعليم بعد ان اهتدى الى الكتابة ، وأخذ يسجل بها كل ما يهمه من أحداث وعلوم ومعاملات .

وقد تطور الشعر بعد أن شب عن الطوق ، وودع عصور الفطرة والبداوة تطورا كبيرا ، فارتقت أساليبه الفنية فى عصور الحضارة والتقدم الانسانى ، وتنوعت أغراضه وفنونه ، ودخلته عناصر الصنعة والتأنق ، ولكن بقيت (الموهبة) هى القاعدة التى لاغنى له عنها ، وبقى (الطبع) هو النبع الفياض لروائعه وآياته على مر الزمان .

ثم اقترب جانب من النثر ناحية الشعر ، فاستعمل فى تأدية بعض أغراضه ، واكتسب بعض خصائصه الفنية ، فى ألفاظه ومعانيه ،

وغذى بشىء من الخيال ،فنشأ بذلك (النثر الفنى) الـــــذى هو قسيم الشعر فى عالم الأدب .

ونظرا لطبيعة النثر المتحررة من قيود الوزن والقافيــــة كان أسهل - فى عصور الحضارة - من الشعر ، وأنسب لكثيـــر من الفنون الأدبية التى جدت بعد ذلك كالقصة الحديثة والمسرحية الحديثة ، وهذا النثر (الفنى) يختلف - بطبيعة الحال - عـــن (نثر التخاطب) الذى لايتجه فيه الانسان الى التجميل ،وانمـــا الى مجرد التفاهم لقضاء المصالح وتبادل المنافع ، والنثر الفنـــى يعتمد أساسا على الفكرة ، أما العاطفة فكملة ، والشعر على العكس اعتماده الأساسى على العاطفة والفكر فيه ثانوى ، وكل من الشعر النثر الفنى يقصد الى تحقيق اللذة الفنية من خلال مايمتازان به من جمـــال التعبير وروعة الأسلوب ،وابداع التصوير .

(أقسام الشعر الجاهلـــى) :

يجدر بنا أولا أن نشير الى أقسام الشعر فى (الآداب العالميه) ولا سيما (الأوربية) فنجد أنها ثلاثـــة :

- الشعر الغنائى ، - الشعر القصصى ، - الشعر التمثيلى : .

فالأول وهو (الغنائى) : يصور به الشاعر عواطفه الخاصة ، وخواطره الشخصية ، ويعبر به عن مشاعره الذاتية تجاه الطبيعة والحيـــاة وعن آلامه ومسراته وآمالـه .

وسمى (غنائيا) لصلاحيته التامة للغناء ، وتغلب عليه الصفة الذاتية ولذلك فهو (أدب ذاتى) .

(٢) والثانى وهو (القصصى) هو ما يتناول فيه الشاعر حدثا واقعيا أو خياليا فيصور مواقفه وشخصياته كما هى ولا يدخل مشاعره الخاصة فى هذا التصوير ، فموضوع القصة خارج عن نفسه ، وما هو الا قاصٌ وحاكٍ وراوٍ له بأسلوبه الشعرى ولذلك يوصف هذا النوع بأنه (أدب موضوعى) .

ومن الشعر القصصى (الملاحم) التى تحكى قصص الأبطال وأساطيرهم فى الأدب الاغريقى القديم ، (كالإيماذة) و (الأوديسة) للشاعر اليونانى (هوميروس) .

(٣) والثالث وهو (المسرحى أو التمثيلى) شعر قصصى كذلك لكن الشاعر لا يسلك فيه طريق السرد والرواية ، وانما يسلك طريق الحوار بين الشخصيات ومن خلال هذا الحوار الملتزم تتضح المواقف وتفهم القصة ، وتمتاز المسرحية عن القصة بامكان تمثيلها على (المسرح) بوساطة ممثلين يتقمصون شخصياتها ويقومون بأدوارهم التاريخية أو المخترعة أمام جمهور من المشاهدين فتبدو وكأن أحداثها واقعة لتوها ، فتكون أروع وأعظم تأثيرا ، ولذلك فان المسرحية تعد من أمتع وأجمل ألوان الأدب الموضوعى . وأقدم

شعر تمثيلى وصلنا هو مسرحيات شعراء الاغريق القدماء وفى مقدمتهم (أسخيلوس) و(سوفوكليس) و(يوربيدس) الذين عاشوا فى بلاد اليونان قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بنحو خمسة قرون .

يجدر بك أن تعلم أن هذه الانواع الثلاثة من الشعر موجودة الآن فى (شعرنا العربى الحديث) ، فهل كانت موجودة كلها فى الشعر الجاهلى ؟

والجواب ان الشعر الجاهلى وجد فيه النوعان الأولان (الغنائى والقصصى) وأنه خلا من النوع الثالث (المسرحى) ولكن النوع (الغنائى) كان هو الغالب على الشعر الجاهلى اذ ورد فيه بكثرة ظاهرة والنوع (القصصى) كان قليلا ومن أجل هذا تجاهل بعض الباحثين مافى الشعر العربى القديم من قصص وادعوا أن الشعر العربى الذى وصلنا كله من النوع الغنائى الإنشادى [1] وهذا الحكم فى رأينا غير صحيح ، وفيه إجحاف وغبن للشعر العربى القديم ، ولو دققنا النظر فى دعوى هؤلاء الباحثين لوجدناها مستقاة من آراء بعض (المستشرقين) الأوربيين الذين يحاولون تجريد الأدب العربى من الصبغة (الموضوعية) وحصره فى الناحية (الذاتية) لمأرب فى نفوسهم هو تنقص الأدب العربى

---

(١) راجع التوجيه الأدبى لطه حسين وآخرين .

ود مع العقلية العربيـة بالعجز والقصور . ولكن النظرة المنصفـة للأمور تعطى كل ذى حق حقه ،ولا تبخس الناس أشياءهم ولا تجرى مع الغرض والهوى فما دام قد وجد فى الأدب العربى القديـم شعر قصصى فلا يسوغ علينا نفيه تماما بحجة أنه قليل !

(٢) النوع القصصى :

والمتصفح للشعر العربى الجاهلى يجد شعرا قصصيا كثيرا كثيرا فى نتاج (الشعراء الصعاليك) من أمثال (تأبط شرا) و(الشنفرى) و(السليك بن السلكة) رووا فيه جانبا من حكايات مغامراتهم المثيرة فى جوف الصحراء ، وقصص حياتهم الحافلة بالغرائب والمفاجآت كقصة لقاء أحدهم بمجموعـة من الجن فى ليل الصحراء الموحش وقصته تأبط شرا مـع (الغول) وهى حيوان خرافى كانت تتحدث عنه العرب ويمت الى الجن بصلة قوية ا وقصته غارة (الشنفرى) علـى ديار أعدائه فى ليلة شاتيه شديدة الظلام والبرد فـى مكان يسمى (الغميصاء) [1] وفى شعر (أصحاب المعلقـات) كامرىء القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم والأعشى شعر قصصـى ولاسيما عند أولهم الذى يحكى لنا فى معلقته اللاميـة المشهورة أقاصيص عن حبائبه وطرفا من مغامراته فى ميادين

(١) راجع النزعة القصصية فى كتاب (الشعراء الصعاليك) للدكتور يوسف خليف وراجع تاريخ الشعر السياسى لاحمد الشايب.

الهوى واللهو من مثل قوله :

ألا رُبَّ يوم لك منهنَّ صالحٍ ولا سيما يوم بدارة جُلجُلِ
ويوم عقرتُ للعذارى مطيتى ... ويوم دخلتُ الخدرَ خدرعنيزة ...
وبيضة خِدْرٍ لا يُرام خباؤها ... وهذا الشطر الأخير

بداية واحدة من هذه القصص أتمها فى عشرين بيتاً

أما (عمرو بن كلثوم) فقد ذكر جانبا من قصته مع (الملك عمرو بن هند) فى معلقته النونية المشهورة ، وأما (عنترة) فقد ذكر طرفا من أحداث قصة حرب (داحس والغبراء) التى اشترك فيها ودخل فى صراع مع (ابن ضمضم) وذلك فى معلقته الميمية [1] ، وأما الأعشى) فقد أورد لنا فى شعره قصته وفاء (السموءل) الرائعة التى ضحى فيها بابنه فى سبيل حفظ أمانته [2]

ولغير الصعاليك وأصحاب المعلقات من الشعراء الجاهليين شعر قصصى كشعر (حاتم الطائى) الذى يحكى فيه قصة إنقاذ حياة إنسان غريب هائم فى الصحراء وكيف تم له انتشاله من الهلاك ثم غمره بكرمه ومروءته وكيف أعانه على ذلك يساره واقتداره ، وكشعر (الحطيئة) فى قصة ضيف طرقه وهو معدم ذو عيال وكيف يسر الله له إكرام هذا

---

(١) راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(٢) راجع القصة فى مجمع الأمثال للميدانى .

الضيف والقيام بحقه على الرغم من هذا الفقر والعدم !

ولولا خشية الإطالة عليك لأثبتنا لك هذه النصوص القصصية فراجعها في مظانها من كتب الأدب الكبرى (كالأغاني) وفي دواوين هؤلاء الشعراء ويلاحظ على الشعر الجاهلي القصصي أنه قصير وأنه لم ترد إلينا منه ملاحم طويلة كملاحم شعراء الإغريق - وربما عملوا ملاحم طويله لكنها فقدت ، وعلى أية حال فإن وجود اللون القصصي في الشعر الجاهلي مع قلته النسبية كاف لإثباته وعده من أنواع الشعر عند العرب الأقدمين .

أما خلو الشعر العربي القديم من النوع (التمثيلي المسرحي) فحقيقة معترف بها ، ولكنه لم يكن عن عجز أو قصور في العقلية العربية والخيال العربي كما يدعي المستشرقون ومن تأثر بهم من باحثينا - بدليل اقتدار العرب عليه في العصر الحديث - وإنما كان لأسباب وجيهة وظروف بيئية واجتماعية لا مجال لبسطها الآن وسنعرضها عليك في دراسة قادمة بإذن الله تعالى .

(٢) الشعر الغنائي الجاهلي وفنونه :

قدمنا لك أن الشعر الغنائي هو الكثير الغالب مما جاءنا من الشعر الجاهلي ، وأن المراد به ذلك (النوع الذاتي) الذي يعبر عن عواطف الشاعر الشخصية ومشاعره الخاصة ولما كانت مشاعر الإنسان متنوعة ، وعواطفه متغايرة ، فمنها

الحب ومنها البغض ، ومنها السرور ومنها الحزن ، ومنها الرضا ومنها الخوف ، ومنها الإعجاب بالنفس أو بالغير ... الخ .

فلا عجب أن تتنوع فنون الشعر الغنائي تبعا لذلك وأن تنقسم إلى ما اصطلح النقاد على تسميته (بالأغراض الشعرية) ، وقد حصرها الباحثون فوجدوها تكاد تنحصر في عشرة أغراض كبيرة تداولها عامة الشعراء في العصر الجاهلي وجاراهم فيها شعراء العصور التالية . وهي :

الغزل - الوصف - الحماسة - الفخر - الرثاء - المدح - الهجاء - الاعتذار - الخمريات - الأدب والحكمة

فمن عاطفة الحب ينبع الغزل ، ومن عاطفة الإعجاب ينبع الفخر والوصف والمدح ، ومن عاطفة البغض ينبع الهجاء ، ومن عاطفة الخوف يجيء الاعتذار ، ومن عاطفة الحزن يأتي الرثاء وهكذا ....

(الطابع العام للشعر الجاهلي) :

أول ما يلفت النظر إلى الشعر الجاهلي رواجه فيهم ، وازدهاره بينهم ، وغلبته على أدبهم ، ومنزلته السامية في مجتمعهم وليس أدل على رواجه وازدهاره من هذا التراث الضخم الذي وصلنا من شعر ذلك العصر الذي لا تزيد مدته عن قرن ونصف قبل الإسلام ، ومن وفرة عدد

الشعراء الذين جاوزا المئات الى الآلاف ، والذين بأسماءهم وأشعارهم تزخر كتب الأدب الكبرى (كالشعر والشعراء) و(الأغانى) و(طبقات الشعراء) والحماسة) و(المفضليات) و(الكامل) ..الخ

ومما ساعد على ذلك أن الامة العربية أمة شاعرة بطبيعتها ، موهوبة فى فن القريض هيألها هذا بيئتها الصحراوية الواسعة المكشوفة ، وظروف حياتها الرعوية السهلة القليلة الشواغل ، مع ما يتمتع به العربى من جو الحرية ومن صفاء الذهن ، وسرعة الخاطر ،وحدة العاطفة ، وقوة الشعور والإحساس ، إلى جانب موهبته اللغوية فى ذلاقة اللسان وسهولة الإيضاح والبيان .

ومما يدل على علو منزلة الشعر فى مجتمعاتهم وشدة حبهم له أنهم كانوا يروونه فى كل مناسبة ، ويتناشدونه فى مجالسهم ومحافلهم ،حريصين على حفظه حفيين به كل الحفاوة ، وأنه كان للشاعر عندهم أعظم مكانة ،لأنه لسان القبيلة المنافح عن أحسابها المذيع لمفاخرها الكابت لأعدائها ،وأنهم كانوا إذا نبغ فيهم شاعر أعلنوا البهجة والفرح ، واحتفلوا بذلك احتفالا عظيما فنحروا الذبائح وأقاموا الولائم ، وقدمت عليهم وفود القبائل الأخرى للتهنئة بهذه النعمة الجزيلة ،وكان الشاعر المشهور فى العرب موضع تكريمهم

واحترامهم جميعا ، يشفع فيشفّع وتُقضى حاجاته في يُسر ، ويَحكُم فيُرضَى حكمه ، كذلك كان مهيب الجانب ، مرغوبا مرهوبا ، مدحه يرفع الخامل ويشرف الوضيع ، وذمه يخفض النابه ويزري بالسيد الشريف .

بل قد يرفع بيتٌ من الشعر أو أبياتٌ قليلة شأنَ قبيلة بأكملها إذا كان مدحا وإشادة ، وقد يفعل العكس إذا كان هجاء ، لأن شعر الشاعر كان يسير في القبائل سير الشمس في البلاد ، كأنه الصحف السيارة في زماننا الحاضر ومن وراء ازدهار الشعر لدى العرب الجاهليين وتعلقهم به أسباب أخرى أهمها :

(١) تعبيره عن حياتهم وتصويره إياها أصدق تصوير ، فهو مرآتهم التي يرون فيها أنفسهم ، وتنعكس على صفحته شخصياتهم مع ما عرف عنهم من اعتزاز بالنفس وبالشخصية .

(٢) إشباعه لحاجاتهم النفسية وتعطشهم إلى الجمال ، فهو فنهم الجميل ، وفنهم الأول ، الذي استولى عليهم بموسيقاه الشجية ، وأوزانه الكثيرة المنوعة ، وعاطفيته الجياشة .

(٣) أنه - نظرا لبداوتهم وأميتهم - ديوان مفاخرهم وسجل أعمالهم وبطولاتهم ، فهو موطن عزهم ، ومجلى شرفهم وتاريخهم .

نشأة الشعر الجاهلـــــــي

عرضنا عليك فيما سبق قضية أولية الشعر فى آداب الأمم كافـــة وسبقه النثر الى الوجود ، وسقنالك الأدلة التى تدعم هذا الرأى ، والشعر العربى ليس بدعا فى هذه الناحية فهو أول مظهر من مظاهر الأدب عرفه العرب . ولكن متى بدأ ظهور الشعر العربى ؟ ليس من السهل الاجابة القاطعة المحددة عن هذا السؤال ، لأن ـ الشعر الجاهلى الذى وصلنا يشهد مستواه الفنى بنضجه اللفظـــى والمعنوى واكتماله الموسيقى بهذه الأوزان المتعددة والبحـــــور المنوعة والقافية المتينة المتآلفة ، وليس من المعقول أن يكون شعـــر له هذه الصفات هو شعر البداية ، بل الأقرب الى المنطق أن يكـون الشعر الجاهلى قد مر بأطوار ومراحل ، تدرج فيها من الطفولـــة والسذاجة الى القوة ، والى هذا المستوى الراقى المكتمل . ونظرا لأمية العرب لم يدونوا شعرا لمراحل الأولى التى يرجح أنهـــــا موغلة فى القدم بل كان الاعتماد على الحفظ والرواية ، ومن الطبعى أنهم كانوا كلما وصلوا الى مرحلة أعلى ، أهملوا رواية شعر المرحلـــة السابقة لما جبل عليه الانسان من الاحتفاظ بالأفضل والأجـــــود ـ حتى فى الأشياء المادية ـ واهمال ما عداهما [1] .

(١) تأمل ـ على سبيل المثال ـ استغناء الناس الآن بالمسجلات الحديثة ذات الشرائط (الكاسيت) عن وسائل التسجيـــل القديمة ذات الاسطوانات واختفاء الأخيرة تدريجيا .

اذن لم يصلنا إلا انتاج المرحلة الاخيرة من شعر العصر الجاهلى مرحلة النضج والاكتمال ، وقد قدرها الباحثون بما يزيد قليلا على قرن ونصف قبل الإسلام ،ومن أوائل شعراء هذه المرحلة (عدىّ بن ربيعة التغلبى) الملقب (بالمهلهل) ،و(امرؤ القيس الكندى) و(عبيد بن الابرص الأسدى) ، ويقال إن (المهلهل) هو أول من طول القصائد ورقق الشعر فى رثاء أخيه (كليب) الذى قامت بسبب قتله (حرب البسوس) ،وإن (امرأ القيس) هو أول من تفنن فى أغراض الشعر وابتدع فى معانيه وأخيلته .

أما شعر ماقبل هذه المرحلة فقد ضاع كله ، وأما شعر (مرحلة النضج) هذه فضاع جزء منه وبقى جزء هو الذى بأيدينا ،ويرى كثير من الباحثين أن الذى ضاع هو القدر الاكبر ، وأن الذى بقى لنا مع كثرته الظاهرة - هو القدر الأقل ، وعللوا كثرة المفقود منه بكثرة من قتل من حفاظه ورواته فى الحروب الجاهلية والإسلامية ، ولنا أن نتصور الشعر الجاهلى لو لم يفقد منه شئ هائل الكم ، ضخم المقدار أضعاف ما وصلنا ولكن لعلنا لانعجب إذا تذكرنا أن الشعر كان بضاعة العرب الرائجة وفنهم الأول وديوانهم المفيد ، ومن هنا كانت كثرته الفائقة (١)

أعلام الشعر الجاهلى وطبقاتهم

---

(١) كما نرى كثرة (التماثيل) فى آثار قدماء المصريين لبراعتهم فى فن النحت ، وكثرة المبانى الضخمة فى آثار الرومان ،وكثرة المسرحيات فى آثار الإغريق .

كان لكل قبيلة شعراء ،منهم النابه المشهور ، ومنهم ذو المنزلة المتوسطة، ومنهم الخامل المغمور ،وكان النابه المجيد من شعرائهم يتجاوز شعره مجال قبيلته وماجاورها من القبائل إلى أنحاء شبه الجزيرة ،فيذيع صيته ويشرّق قوله ويغرّب ، وترويه الرواة وتردده الألسنة في المجامع والمنتديات .

ويلاحظ أن الشعر الجاهلي قد ازدهر في شمال شبه الجزيرة (الحجاز ونجد وما يليهما) أي في موطن العدنانيين ، أكثر من ازدهاره في جنوبها (اليمن ومايليه) أي موطن القحطانيين ولكن كان من شعراء الشمال من كان يمنيّ الأصل قحطانيا ولكن قبيلته هاجرت الى الشمال فنشأ هناك (كامرىء القيس الكندي) و(حاتم الطائي) و(الأفوه الأودي) .

أما الشعراء العدنانيون أصلا فمنهم (المهلهل) و(طرفة) والمرقشان الأكبر والأصغر ، (والحارث بن حلزة) و(المتلمس) ومنهم كذلك : (النابغة الذبياني) ، (وزهير) و(لبيد) و(أوس ابن حجر) وبعض هؤلاء العدنانيين يرجع نسبه الى فرع (ربيعة) كالمهلهل التغلبي وطرفة البكري ومن يرجع الى فرع (مضر) كالنابغة وزهير وكان المضريون إما (قيسيون) كعنترة وزهير وإما تميميون كأوس بن حجر واما (هذليون)كأبي كبير الهذلي .

ومن أقدم الشعراء الجاهليين (أبو داود الإيادي) الذي قالوا ان امرأ القيس روى شعره وتأثر به ، و(أوس بن حجر) (وبشامة)

ابن الغدير) الذين روى لهما زهير و (المسيب بن علس) الذى روى له الأعشى .

والشعراء الجاهليون من حيث (الزمن) طبقتان : همــــا (الأوليان) من التقسيم التالى الذى نسوقه لطبقات الشعراء عامـــة فى الأدب العربى كله :

(١) (طبقـة الجاهليين الأقحاح [1]) : وهم الذين قالوا الشعـر فى عصر الجاهلية ولم يدركوا الإسلام كامرئ القيس وطرفة وعنتـرة أو أدركوه ولم يقولوا فيه شعرا مثل (لبيد) .

(٢) (طبقة المخضرمين) : وهم الذين قالوا الشعر فى الجاهليـة وأدركوا الإسلام وقالوا فيه شعرا كذلك مثل (حسان بن ثابـت) و (الحطيئة) و (كعب بن زهيـر) .

(٣) (طبقة الشعراء الإسلاميين) : وهم الذين نشئوا فى الإســلام ولـم يدركوا شيئا من الجاهلية مثل (جرير) و (الفرزدق) ، و (الكميت) وينتهى عهدهم بنهاية الدولة الأموية . (وهــذه الطبقات الثلاث يحتج بشعرها فى إثبات قواعد اللغة العربية بلاغتها العربيـة) .

(٤) (طبقة الشعراء المحدثين أو المولدين) وهم الذين نشئـــوا بعد قيام الدولة العباسية مثل (أبى نواس) وأبى العتاهيـــة

(١) القح : الخالص

و (البحترى) و (المتنبى) إلى يومنا هذا والى ماشاء الله وهؤلاء لايحتج بشعرهم فى اثبات قواعد اللغة لأنهم نشئوا فى عهود امتزج فيها العرب بالاعاجم وفسدت السلائق العربية[1] الأصلية .

أما طبقات (الشعراء الجاهليين) من حيث (الإجادة) والاقتدار على قرض الشعر بالإكثار منه ، فقد اختلف النقاد فى ذلك كثيرا ، لاختلاف الأذواق والمشارب ، ولاختلاف الأهواء أيضا (فابن سلام الجمحى) المتوفى عام ٢٣٢ هـ رتبهم فى عشر طبقات فى كل طبقة أربع شعراء لانطيل بذكرها ونحيلك على كتابه (طبقات فحول الشعراء)[2] .

(وأبو عبيدة معمر بن المثنى) م ٢٠٩ هـ جعلهم ثلاث طبقات وقد اعتمد رأيه معظم الباحثين لوجاهته ، وهذا بيانها :

(الطبقة الأولى) وفيها ثلاثة شعراء : أمرؤ القيس ، وزهير والنابغة

---

(١) وليس معنى ذلك سقوط شعرهم من الناحية الأدبية ففيهم قمم شوامخ ومبدعون يفخر بهم الأدب العربى ـ وانما لم يحتج بشعرهم من باب الاحتياط للغة وقواعدها فحسب .

(٢) راجعة بتحقيق الاستاذ محمد محمود شاكر طبع دار المعارف عام ١٩٦٧ م .

(الطبقة الثانيـة) وفيها ثلاثة كذلك هم : الأعشى ، ولبيـد ، وطرفـة .
(الطبقة الثالثة) وفيها تسعة شعراء هم : عنترة ، وعروة بن الـورد ودريد بن الصمة ، والمرقش الأكبر ، والنمر بن تولب والشماخ بن ضرار وكعب بن زهير ، والحطيئة ، وخداش بن زهير .

وقد اختلف الباحثون في أشعر شعراء الجاهلية ، فعقـد بعضهم إمارة الشعر لامرئ القيس ، وانحاز بها بعضهم إلى زهير وانحاز آخرون الى النابغة ، وآخرون الى الأعشى . ولما كان لكل منهـم ميزة انفرد بها عن أصحابه ، أنصفهم جميعا بعض النقاد فقـال :
" أشعر الجاهليين امرؤ القيس إذا ركب (أي في وصف الفرس والصيـد) وزهير إذا رغب ، (أي في المديح) ، والنابغة اذا رهب (أي في الاعتذار) والأعشى اذا طرب (أي في وصف الخمر) .

أجود الشعر الجاهلي (المعلقـات)

وقد اتفق الباحثون على أن أجود الشعر الجاهلي يتمثل فـي القصائد المعدودة التي اشتهرت باسم (المعلقات) والتي فضلهـا الجاهليون أنفسهم على غيرهـا وذلك لاختصاصها بعدة مزايـا منها : الطول ، والجزالة ، وتناول أغراض جليلة ، وصدق تصويرهـا وعدوها من الأدب الجاهلي في القمة ، لما وجدوا فيها من قوة اللفظ

وابداع المعنى ، وجمال التشبيه ، وتنوع الموضوعات وسمو الصياغة . وقد عدها بعض علماء الأدب (سبعا) كالامام (أبى عبد الله بن الحسين بن أحمد الزوزنى) المتوفى عام ٤٨٦ هـ فى كتابه (شرح المعلقات السبع) وعدها بعضهم (عشرا) كالامام (أبى زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى) م ٥٠٢ هـ بزيادة ثلاثة على ما أورده سلفه (الزوزنى) ونجمع بين الرأيين فنوردها لك على الترتيب الذى رتباها به :

(المعلقة الأولى) قصيدة (امرىء القيس بن حجر الكندى) اليمانى أصلا النجدى دارا ومطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ .. بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

وهى لامية وتقع فى واحد وثمانين بيتا من البحر (الطويل)

(المعلقة الثانية) قصيدة (طرفة بن العبد بن سفيان البكرى) الدالية ومطلعها :

لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثَهْمَدِ .. تلوح كباقى الوشم فى ظاهرِ اليدِ

وتقع فى مائة وثلاثة أبيات من بحر الطويل أيضا .

(المعلقة الثالثة) قصيدة (زهير بن أبى سُلْمى المُزَنى) الميمية ومطلعها :

أَمِنْ أمِّ أوفَى دِمْنةٌ لم تكلّمِ .. بحَوْمانةِ الدرَّاجِ فالمتثلّمِ ؟

وتقع فى اثنين وستين بيتا من البحر الطويل كذلك .

(المعلقة الرابعة) قصيدة (لبيد بن ربيعة بن مالك العامرى)
الهائية ومطلعها :

عَفَتِ الديارُ مَحلها فمقامها .. بِمِنًى تأبدَ غولها فرجامها

وتقع فى ثمانية وثمانين بيتا من بحر (الكامل) .

(المعلقة الخامسة) قصيدة (عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبى)
النونية ومطلعها :

ألا هُبِّى بصَحْنِك فاصْبَحِينا .. ولا تُبقى خُمُورَ الأنْدَرِينا

وتقع فى مائة وثلاثة أبيات من بحر (الوافر)

(المعلقة السادسة) قصيدة (عنترة بن شداد العبسى) الميمية
التى مطلعها :

هلْ غادَرَ الشعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ؟ .. أمْ هل عرفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ ؟

وتقع فى خمسة وسبعين بيتا من بحر (الكامل) .
(المعلقة السابعة) قصيدة (الحارثِ بن حِلِّزَةَ اليشْكُرِيُّ) الهمزية
التى مطلعها :

آذنَتْنا بِبَيْنِها أسْماءُ .. رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ

وتقع فى اثنين وثمانين بيتا من بحر (الخفيف) .

(المعلقة الثامنة) قصيدة (أعشى قيس) اللامية التى مطلعها :
وَدِّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مرتحلُ .. وهلْ تطيقُ وَداعًا أيها الرجلُ ؟

وتقع في أربعة وستين بيتا من بحر (البسيط) .

(المعلقة التاسعة) قصيدة (النابغة الذبياني) الدالية

ومطلعها :

يا دارمية بالعلياء فالسند .. أقوت وطال عليها سالف الأبد

وتقع في خمسين بيتا من بحر (البسيط) كذلك .

(المعلقة العاشرة) قصيدة (عبيد بن الأبرص الأسدي) البائية

ومطلعها :

أقفر من أهله ملحوب .. فالقطبيات فالذنوب

وتقع في ثمانية وأربعين بيتا من مجزوء (البسيط) .

وقد عنى الرواة بجمعها ، وعنى علماء الأدب واللغة بشرحها والتعليق عليها ـ لما سبقت الإشارة إليه من علو منزلتها في الشعر الجاهلي ـ كما عنى المستشرقون في الأعصر الأخيرة بها فترجمها بعضهم إلى اللغات الأوربية ، وشفعوا هذه الترجمات بدراسات عنها . ولكن لماذا سميت بالمعلقات ؟ قيل في ذلك كلام كثير موجزه : " أنها علقت على (الكعبة) بعد أن كتبت بماء الذهب على القباطي المدرجة[1] تكريما لها وتفضيلا بإجازة من قريش ، ومن ذلك جاء أيضا تسميتها (المذهبات) ويؤيد هذا الرأي (ابن خلدون) و (ابن عبد ربه) و (ابن رشيق) .

---

(١) قماش رقيق من كتان كان يصنع بمصر .

وقيل : بل كان التعليق فى (سوق عكاظ) إشهارا لهـا وافتخارا بها بين أهل الموسم .

وهو قول (الألوسى) صاحب بلوغ الأرب) . وقيـل :

بل كان التعليق فى جدار البيت أو سقف الخيمة خوفا عليهـا من الآفات ، وقيل : بل التعليق بمعنى (الإثبات والحفظ) عنـد (ملك الحيرة) بأمره فقد روى صاحب (طبقات الشعراء) أن ملـوك الحيرة ـ وكانوا أحفياء بالشعر ـ " كان عندهم ديوان مكتوب جمعـوا فيه ما استجادوه من الشعر " وبخاصة . أنهم كانوا مقصد كثير مـن الشعراء كالنابغة والأعشى وحسان ، وقيل : بل التعليق معنـاه (الحفظ فى الصدور والكتب) بدليل تسميتها أيضا (السموط) ـ وهى القلائد والعقود ـ فكأن هذه القصائد لجودتها شبهت بالعقـود فى النفاسة والجمال والحرص عليها وحفظها من الضياع كما تحـرص المرأة على قلائدها فتعلقها فى جيدها ، ولك ان تختار من هذه الآراء ماتطمئن إليه نفسك ويقبله عقلك !

(رواية الشعر الجاهلى / وما أثير حوله من شبهات / والرد عليها)

من الحقائق المقررة أن العرب كانوا أمة أمية لايقرأ ويكتب فيها إلا قلـة نادرة ، وأن اعتمادهم فى تداول نتاج شعرائهم كان فى الأعم الأغلـب على (الوعى والحفظ فى الصدور ، وعلى الرواية) ، فكان هذا النتـاج

ينتقل من جيل إلى جيل شفاها ، كان الشعراء يحفظون أشعار أنفسهم ثم يروونها للغير ، فكان الشعر يتسلسل فينتقل من فم الشاعر نفسه الى راويه الخاص والى أهله وعشيرته ثم الى الناس جميعا ، وكان لكل شاعر مشهور راوية أورواة يتلقون عنه ، وينشدون للناس شعره فيذيع وتتناقله الألسن ، وكان هذا الراوية يتخرج شاعرا ويصبح له رواة بدوره ، فقد أوردت كتب الادب أن (امرأ القيس) كان راوية لأبى داود الإيادى ، وأن (زهيرا) كان راوية لأوس بن حجر وأن (الاعشى) كان راوية للمسيب بن علس وهكذا ... ناهيك بأبناء الشاعر [1] وأفراد قبيلته إذ كانوا أحرص الناس على رواية شعره وحفظه واذاعته فى الآفاق لما قد ينالك من الاسباب .

وقدكان الحظ يسعد به بعض الشعراء أحيانا فتكتب قصائدهم فتكون هذه طريقة أخرى لحفظ شعرهم لكنها نادرة ، والمعول عليه هو الرواية ، أضف الى أسباب تكن الرواية أنها كانت - بسبب أن الشعر هو فن العرب الاول [2] - من صفات سادتهم وحكمائهم

(١) كأبناء زهير بن أبى سلمى وكلهم شعراء وابن حسان بن ثابت (عبدالرحمن) وحفيده (سعيد) وكانا شاعرين .

(٢) بل كان يمثل الفن والعلم معا .

وأهل البصر فيهم ، فقد كانت دليلا على عقل الرجل وعرفانه وتمكنه من تاريخ قومه وإحاطته بمشهور أيامهم ومواطن شرفهم وعزهم ، ومأثور كلامهم وحكمهم ، فلا يخلو رجل من عقلاء العرب من رواية الشعر وترداده والتمثل به ، وأضف أيضا الى أسباب قوة الرواية غناء المغنين فى المناسبات بالشعر وحداء الحادين (١) فى الأسفار بأبياته ومقطوعاته ،وكلاهما مخلد للشعر حافظ له من الضياع والاندثار . كل ذلك كفل للشعر الجاهلى حياة فى وجدان العرب ،وحضورا على ألسنتهم ،ومستقرا مكينا فى ذاكرتهم التى اشتهروا بقوتها ، وحافظتهم التى عرفوا بين الأمم بحدتها واكتمالها - واستمر الحال على ذلك فى الجاهلية ، فلما جاء الاسلام وجه الشعر وجهة جديدة أفضل وأجمل ،ولكنه لم يحارب التراث الشعرى الموروث عن أيام الجاهلية باعتبار أن الشعر فن جميل وموقف الاسلام من الفنون الجميلة سمح جميل بشرط ألا تنحرف إلى الاضرار بالانسانية فاذا انحرفت حارب انحرافها ولم يحاربها هى فى حد ذاتها .

ومن ثَمَّ وبالاحتكام الى الواقع ندرك موقف الاسلام من الشعر الجاهلى (فما وافق الدين منه) كحكم زهير وغيره فقد استمرت روايته بل زاد الحرص عليه ، (وماكان منه محايدا) من الأغراض الشعرية كالوصف والرثاء والاعتذار والمدح الصادق والغزل العفيف ، فهو تراث لغوى ، وزاد أدبى ، وتاريخ وطنى لاغبار عليه ،وروايته مستمرة

---

(١) الحادى : هو من يغنى أمام الإبل فى السفر لتنشط وتنشط .

(ومالا يقره الإسلام منه) كالغزل الفاحش والهجاء المقذع والفخر بالآباء ، فان كانت روايته للهو واللعب والتأسى فهذا يكرهه الاسلام ويحرمه ، وان كانت روايته (للدراسة والعلم) فلا حرج فيها ولا خوف منها بعد أن تمكن الاسلام من عقائد العرب وغلب على أخلاقهم وأساليب حياتهم . والدليل على ذلك أن رسول الإسلام (محمدا عليه الصلاة والسلام) كان يستمع الى الشعر الجاهلى ويعجبه فنه الرائع ويستزيد من إنشادة مستمتعا بسمع من شعر (عنترة) ، ومن شعر (الخنساء) ومن شعر (أمية بن الصلت) ومن أشعار غيرهم . وأن أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه مع شدته فى دين الله وصرامته المعروفة فى الحق كان يروى شعر (زهير) ويعجب كثيرا بما اشتمل عليه من الحكمة ، وأن الصحابى الجليل (عبد الله بن عباس) رضى الله عنه كان يسمع بل يروى من الشعر والغزل ما شاء الله أن يسمع وأن يحفظ .

لم يقف الاسلام إذن ضد الشعر الجاهلى ، ولا فى طريق روايته فاستمرت هذه الرواية بعد مجئ الاسلام كما كانت من قبل (بل زادها الاسلام دعما بما حضّر من الأمة العربية وما علمها ورقى بمستواها) واتصلت سلسلة الرواية من الشعراء الجاهليين إلى

الإسلاميين على النهج السابق ، فعلى سبيل المثال ، كان (الحطيئة) الذى أدرك الإسلام من رواة (زهير) الجاهلى ، ثم جاء (هدبة ابن خشرم) فكان راويته الحطيئة ، ثم كان (جميل بن معمر) راوية هدبة ، و(كثير عزة) راوية جميل وهكذا .. ثم توسع المسلمون فى رواية الشعر ، فجدت فى عهد بنى أمية الى جانب الرواية الخاصة ـ التى يختص فيها الراوية بشاعر واحد ـ (رواية عامة) يروى فيها الراوية الواحد لعشرات الشعراء ومئاتهم[1] ، وامتد ذلك النهج التوسعى فى الرواية الى العصر العباسى .

(تدوين الشعر الجاهلى) :

وفى الصدر الأول من الإسلام لم يكتب المسلمون ولم يدونوا شيئا سوى القرآن الكريم إجلالا له ، واحتياطا لمتنه الشريف أن يدخل فيه ماليس منه ، فاعتمد الناس على (الرواية) فى مجالات أخرى جليلة الشأن (الى جانب الشعر) كالحديث النبوى الشريف وتفسير القرآن الكريم ، وسيرة الرسول وأخبار مغازيه ، وخطب وآثار خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم ، فلما أمن المسلمون تماما على القرآن الكريم أخذوا فى (التدوين) لكل ماسبق فبدءوا فى تدوين أحاديث الرسول وغزواته وأخبار الأولين فى (العصر الأموى) وتهيع

---

(١) وذلك حين دخل ميدان الرواية علماء الأدب ومؤرخوه على ماسيأتى تفصيله .

فذلك تدوين الشعر جاهليه واسلاميه ولكن حركة التدوين بلغت ذروة اتساعها وقوتها أواخر عصر بني أمية وأوائل العصر العباسي إذ أدرك العهد بين جميعا أشهر رواة الشعر العربي (كأبي عمرو ابن العلاء) ، ((المفضل الضبي) و (أبي زيد الانصاري) و (حماد) .

وفي عصر هؤلاء العلماء وتلاميذهم من بعدهم ازدهرت الرواية في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية على حد سواء ، وصارت علما بارزا له أعلامه ونوابغه وشملها الخلفاء من أمويين وعباسيين بالرعاية التامة والتشجيع العظيم (١)، وأخذ هؤلاء الرواة يدونون مروياتهم في كتب ألفوها .

قال صاحبا (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه) (٢) « وكانت كتابة التصنيف والتدوين في القرن الأول (الهجري) وبعض الثاني عبارة عن سلسلة من الروايات المسندة الى رواتها من أحاديث نبوية أو أقاويل صحابة أو فتاوى فقهاء أو أشعار أعراب ، أو أخبار فتوح أو نوادر أو غير ذلك ، وبعضها يروى بلفظ أصحابها غالبا كما في الشعر والخطب والرسائل ، وبعضها بلفظ الراوي كما في أخبار الفتوح والتاريخ والقصص » ودخل في نطاق الرواية - شرعية وأدبية -

(١) راجع قصة (حماد) الراوية مع الخليفة الأموي (هشام بن عبدالملك) ثم قصته مع الخليفة (المهدي) العباسي في شرح السندوبي على كتاب البيان والتبيين للجاحظ ط الاستقامة ١٣٦٦هـ ، ١٩٤٧م

(٢) هما المرحومان الشيخان (أحمد الاسكندري) و (مصطفى عناني)

بعض من اتهموا فى أمانتهم العلمية ، فكانوا غير ثقات ـ وهم قلة ـ فما أدخلوا فى الأحاديث وفى الشعر دخيلا من صنعهم لأسباب متعددة [1] فانبرى لهم علماء الرواية والأمناء الثقات ـ وهم الكثرة ـ فتتبعوا رواياتهم ونقدوها ومحصوها ، فأقروا صحيحها ، وأظهروا باطلها ونبهوا على زيفها وكذبها ، وكثيرا ما أسقطوا رواية من يثبت عليه الكذب والاختلاق ، فنشأ من ذلك علم (الإسناد) و(نقد الرجال) ولاسيما فى رواية السنة النبوية (علم مصطلح الحديث) ونشأ فى الأدب مما يشبه ذلك ، وصارت (العنعنة) : (حدثنى فلان عن فلان عن فلان ..) الخ من سمات العلوم الإسلامية الشرعية واللغوية والأدبية كما تجدها ـ على سبيل المثال ـ فى (صحيح البخارى) متصلة برواية الأحاديث النبوية وفى كتاب (الأغانى للأصفهانى) متصلة برواية الشعر وأخبار الشعراء ، وهذا الاتجاه العلمى فى التحقيق والنقد والتمحيص لتراث الأمة الدينى واللغوى والأدبى مما انفردت به الأمة الاسلامية فى ثقافتها وأسس حضارتها .

وكما تشدد علماء السيرة [2] والسنة فى تصحيح الرواية وقاموا بعد البحث بتعديل الرواة أو جرحهم ، والتزموا بشدة التحرى والتوثق للوصول

---

(١) منها التظاهر بكثرة الرواية ومنها أغراض سياسية أو قبلية أو علمية .

(٢) كابن هشام صاحب السيرة النبوية (عبدالملك بن هشام المعافرى) م ٢١٣ هـ

الى الصادق الصحيح من الروايات الذى تطمئن إليه النفس احتياطا للدين ، سرت هذه الروح فى رواية الشعر والأدب احتياطا للغة ، ولا سيما فى ذلك العصر الذى كان يبنى فيه صرحها وترسخ أسسها ، ويستشهد فيه بمأثور الشعر الجاهلى والإسلامى على قواعدها ، ويحتج بهما لصحتها .

(وأشهر رواة الشعر وعلمائه) الذين أشرنا إليهم وجدوا فى (البصرة) و (الكوفة) اللتين كانتا من أهم مراكز اللغة والأدب فى عهد صدر الاسلام وبنى أمية ، ثم فى (بغداد) حاضرة العلوم والآداب ومهد الثقافة الإسلامية الشاملة لأكثر من خمسة قرون تالية .

فمنهم (عامر بن شراحيل الشعبى م ١٠٥ هـ الحجة الثقة الذى بلغ من حفظ للشعر ان قال عن نفسه : " لو شئت لأنشدت شهرا ولا أعيد بيتا " ! ، و (الخليل بن أحمد الفراهيدى) البصرى ١٦٠ هـ العالم المحقق العبقرى واضع علمى العروض والقافية اللذين استنبطهما من كثرة روايته واطلاعه على أشعار العرب الأقدمين (وحماد بن أبى ليلى) الكوفى ١٥٥ هـ الذى يصف فى روايته الشعر بأنه البحر لا ساحل له ، وكان المقدم عند بنى أمية فى الرواة وقد سأله أحد خلفائهم عن مقدار ما يحفظ من الشعر ، فقال : كثير ، ولكنى أنشد على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات (الصغيرة) من شعر الجاهلية دون الإسلام

وهو أول من عنى بتدوين القصائد السبع الطوال المعروفة (بالمعلقات) ، بيد أنه تزيد فى بعض أشعار الأقدمين ففقد ثقة العلماء والنقاد فى بعض مروياته . (والمفضل بن محمد الضبى) صاحب (المفضليات) ومؤدب الخليفة (المهدى العباسى) وكان معاصرا لحماد وكان ثقة أمينا يساجل حمادا ويرده الى الصواب.

(وأبو عمرو بن العلاء) البصرى ١٥٩ هـ وهو امام حجة ثقة من أساتذة الاصمعى وأبى عبيدة وعنه أخذ أكثر النحاة والادباء (وأبو زيد الانصارى) ١٧٥هـ تلميذ (المفضل) وأستاذ الاصمعى صاحب كتاب (النوادر) فى اللغة وكتابى (المطر) و (اللبن)

و (خلف الاحمر البصرى) ١٨٠ هـ من أساتذة الاصمعى وفيه يقول (الاخفش) : " لم ندرك أحدا أعلم بالشعر من خلف " وهو صاحب كتاب (أيام العرب وماقيل فيها من الشعر) لكن خلفا اتهم بصنع بعض القصائد ونسبتها الى الشعراء الجاهليين ففقد ثقة علماء الشعر ونقاده كزميله (حماد) ووضعت مروياته الخاصة موضع الشك ، (ويونس ابن حبيب) النحوى البصرى ١٨٢ هـ (وأبو عمرو الشيبانى البصرى ٢٠٦ هـ جامع أشعار القبائل (وأبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى) البصرى ٢٠٩ هـ صاحب (نقائض جرير والفرزدق)(١) و (عبد الملك ابن قريب الاصمعى) البصرى ٢١٦ هـ الامام الثقة الحجة الثبت سمير الخليفة (الرشيد) وأستاذ جيل من الرواة والادباء ، وكان من

---

(١) وثلاثتهم ثقات عدول

أحفظ أهل زمانه ، وقد قال مرة : " إني أحفظ اثني عشر ألف أرجوزة[1] " فقال رجل : منها البيت والبيتان ، فقال : ومنها المائة والمائتان ؟ ! وهو صاحب (الأصمعيات) في الشعر وله كتاب في (الأراجيز) وكتب أخرى في الأدب هذه طبقة من الرواة نخص على سبيل المثال لا الحصر تسعة من الرواة الثقات واثنين من الرواة غير الثقات ، وقد جاءت بعدهم طبقة من علماء الرواية المؤلفين ونقادها المحققين نذكر لك منهم سبعة هم : (محمد بن سلام الجمحي) البصري م ٢٣٢ هـ صاحب كتاب (طبقات فحول الشعراء) من جاهليين وإسلاميين ، (وأبو زيد بن أبي الخطاب) صاحب كتاب (جمهرة أشعار العرب) ، و (أبو تمام حبيب بن أوس الطائي) ٢٣١ هـ الشاعر وصاحب (كتاب الحماسة) وهو مختارات جمعها من شعر الجاهلية والإسلام ، لتكون زادا للمتأدبين ، (وأبو سعيد السكري البغدادي) ٢٧٥ هـ جامع أشعار الهذليين ، وبني شيبان وغيرهم ، (وابن قتيبة الدينوري) ٢٧٦ هـ صاحب كتاب (الشعر والشعراء) و (أحمد بن طيفور) ٢٨٠ هـ صاحب كتاب (المنظوم والمنثور) في أربعة عشر جزءا وهو من تلاميذ (الجاحظ) ، (وأبو عبادة البحتري[2]) الشاعر وصاحب كتاب (الحماسة) الذي ألفه على غرار حماسة أستاذه (أبي تمام) .

ثم جاءت طبقة ثالثة من علماء الرواية الأعلام ، ضمت إلى

(١) قصيدة من بحر الرجز تتغير فيها القافية في كل بيت .

(٢) م ٢٨٤ هـ

رواية أشعار (الجاهليين والاسلاميين) رواية أشعار (المحدثين) من الشعراء العباسيين ، وعلى رأس هؤلاء امام الأدب الأكبر (أبو الفرج الأصفهانى) ٣٥٦ هـ فى كتابه العظيم الفذ (الأغانى) أجمع كتب الأدب العربى للشعر وأحفلها بآثار الشعراء وتراجمهم وأخبارهم الموثقة بالأسانيد ، ويقع فى واحد وعشرين جزءا ، ولا يزال حتى اليوم أعظم المراجع فى بابه ، وأوفاها فى موضوعه . ونكتفى به مثالا فى ختام حديثنا عن الرواية ورجالها وطبقات أعلامها .

ولنا أن نقرر بعد أن عرضنا عليك هذا الجهد الكبير المتواصل الذى قام به (الرواة) تجاه الشعر عامة والشعر الجاهلى خاصة : أنهم حفظوا لنا هذا التراث ، وبذلوا كل مايستطيعون فى تمحيصه ونقده ، وأنهم لم يتوانوا فى التنبيه الى مواطن الشك والضعف فى بعض المرويات ، وفى قولة الحق فى الرواة المتساهلين كشفا لهم وتحذيرا منهم بحيث يحق لنا أن نطمئن الى صحة هذا التراث فى مجموعه الغالب وألا نعتد بالقليل النادر الذى اندس فيه بفعل كذبة الرواة ومبطليهم .

[نظرية انتحال الشعر الجاهلى]

مضت على هذه الحقائق القرون والعصور حتى جاء العصر

الحديث تفتح (المستشرقون [1]) كوة [2] الشك فى الشعر الجاهلى

---

(١) المستشرقون فريق من علماء الافرنج وباحثيهم من نصارى أوربا وبعض يهودها ظهروا فى القرن السابع عشر الميلادى وما بعده ، وتخصصوا فى الدراسات العربية والاسلامية لأهداف أهمها دعم الاستعمار الأوربى لبلاد الشرق الاسلامى وخدمة أغراض التبشير المسيحى ، ولذلك حفلت كتاباتهم عن العرب والمسلمين بالأضاليل والمفتريات والغمز واللمز ، لأنها كتبت بروح التعصب المقيت والحقد الأسود على الأمة الاسلامية ، والعداوة الواضحة لكل ما هو عربى واسلامى وخاصة الدين واللغة بالهجوم الظاهر والمقنع لمحاولة هدمهما ، ويتميز اسلوبهم باخفاء الحقائق ودس الشك وكل ما من شأنه إشاعة روح التخاذل بين العرب والمسلمين وكل ما يؤدى إلى فقدان الثقة بالنفس والعقيدة والتاريخ ثم الايحاء بأن حضارة الغرب ومدنيته الحاضرة هى المثل الأعلى ومن ثم يجب على المسلمين الخضوع لها فى الفكر والحياة — وهذا الوصف يصدق على الأغلبية الساحقة من المستشرقين — وهم كثير — لكن قلة نادرة منهم خالفت هذا المنهج الخبيث واتبعوا الحق فأنصفوا العرب والحضارة الاسلامية فى كتاباتهم بل إن منهم من دخل فى الاسلام عن اقتناع كامل وعقيدة راسخة وإيمان عميق وما زالت حركة الاستشراق موجودة الى اليوم ، ولها أقسام ضخمة فى جامعات أوربا ، وتغدق عليها الدول الأوربية الأموال وتمدها بالامكانات وقد كان لها تأثير كبير فى بعض مفكرينا الذين تلقوا دراساتهم هناك ، وقد بلغت هذه الحركة ذروة قوتها فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وللحركة الاستشراق مع سيئاتها الكبيرة الظاهرة بعض الحسنات فى طبع وفهرسة بعض كتب التراث العربى والتعريف بها واخراجها فى ثوب عصرى منظم وراجع عن هذه الحركة : المستشرقون والاسلام للدكتور ابراهيم اللبان وأوربا والاسلام للامام الدكتور عبد الحليم محمود ، والمستشرقون والاسلام للدكتور على حسنى الخربوطلى ، وأثر الاستعمار الأوربى فى التفكير الاسلامى للدكتور محمد البهى . (٢) الكوة : الفتحة الصغيرة فى الحائط .

حتى جعلوا منها بابا كبيرا لهدمه ، ومدخلا للإتيان على بنيانه من القواعد ، ـ لأغراض فى نفوسهم لاتخفى على لبيب ـ فزعموا أن الشعر الجاهلى كله منحول (١) (مكذوب) مدسوس على الجاهليين وأنه من صنع بعض (الرواة الاسلامية مثل (حماد) و (خلف الأحمر) وجعلوا من ذلك الزعم نظرية ضخموها وزخرفوها حتى ظنوا أنها صلبة ثابتة ، بينما هى فى الحقيقة هشة واهنة وقد تبعهم فيها ـ من أسف ـ أحد أدبائنا المشهورين وهو الدكتور (طه حسين) فجهر بها فى شبابه فضمنها محاضراته لطلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة ، ثم أذاعها ونشرها فى كتابه (الشعر الجاهلى) عام ١٩٢٦ م والذى طبعه فى العام التالى تحت عنوان (فى الأدب الجاهلى) ، ولا أطيل عليك بذكر أقاويله (٢) ولكنى ألخص لك الأدلة التى ساقها لدعم نظرية المستشرقين فى انتحال الشعر الجاهلى معقبين بالرد الموجز المبدد لهذه الشبهات بعون الله تعالى .

يستدل طه حسين على سلامة نظرية المستشرقين فى نحل الشعر الجاهلى بأن ما وصلنا منه لا يمثل حياة العرب الجاهليين وبخاصة

---

(١) انتحل الشىء وتنحله ادعاه لنفسه وهو لغيره ، ونحله الغير : نسبه اليه كذابا .

(٢) راجع الأدب الجاهلى لطه حسين ط لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٢٧ م ، وراجع فى نقض هذا الكتاب كتب الأساتذة : الشيخ الأكبر محمد الخضر حسين والشيخ محمد عرفة ، ومحمد لطفى جمعه وغيرهم

فى النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية ، ثم إنه لا يمثل اللغة الجاهلية لأنه جاءنا بلغة العدنانيين دون القحطانيين وهما لغتان مختلفتان فى زعمه نقلا عن أساتذته المستشرقين ، ونحن نقول : هذه دعاوى باطلة من جهة ، وتحميل للشعر ما لا يحتمل من جهة أخرى ، فاذا بدأنا (بالناحية الدينية) فمن المعروف أن الشعر يوجه عام سبيله الدنيا والخيال ، ولم يكن للجاهليين دين متين يصورونه ، أو عقيدة راسخة تبهرهم ، أو ايمان يملك عليهم أنفسهم فيعبرون عنه فى شعرهم - كما حدث بعد الإسلام - بل كان دينهم وثنية مهزوزة كما أشرنا من قبل ، ومع ذلك لم يخل الشعر الجاهلى مما يصور بعض مظاهر حياتهم الدينية من مثل قول (زهير) :

فأقسمتُ بالبيتِ الذى طاف حولَهُ .. رجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قريشٍ وجُرْهُمِ

وقول (النابغة) : فلا لَعَمْرُ الذى مَسَّحتُ كَعْبتهُ
وما هُريق على الأنْصابِ من جَسَدِ

وقول امرىء القيس حين استقسم بالأزْلام عند صنم ذى الخلصة فنهاه القدح عن المسير لحرب قتلة أبيه ليأخذ بثأره :

لو كنتَ ياذا الخَلَصِ الموتورا .. مثلى وكان شيخُكَ المقبورا
لم تَنْهَ عن قتلِ العُداةِ زُورا

وشعر (أمية بن أبى الصلت) الذى يمثل دين القلة التى أنكرت الوثنية واعترفت بوجود إله واحد ، وهو الشعر الذى سمعه النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

" ذاك رجل آمن لسانه وكفر قلبه " ـ لأنه بعد أن جاء الاسلام عارضه حسدا للرسول وانضم الى قريش ـ فهناك إذن شعر جاهلى يتحدث عن النواحى الدينية عند الجاهليين ، فلماذا يتجاهله طه حسين والمستشرقون ؟ .

واذا انتقلنا الى (الناحية الاقتصادية) نقول : متى كان الشعر مجالا لتصوير الحياة الاقتصادية وسبيلها العقل والتدبير والحساب وهى أبعد الأشياء عن الشعر الذى سبيله كما نعلم العاطفة والوجدان ؟؟ ومع ذلك فما اتصل من الحياة الاقتصادية بحس الشاعر ووجدانه فلا نعدمه فى شعر الجاهليين ، تأمل معى تصوير (طرفة) لإسرافه وإهلاكه ماله فى الخمر واللهو حتى افتقر بعد غنى :

وما زال تشرابى الخمورَ ولذتى .. وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها .. وأُفردتُ افرادَ البعير المعبَّدِ

ثم تأمل إشارته إلى انقسام المجتمع الجاهلي إلى أغنياء وفقراء :

رأيتُ بني غبراءَ(١) لاينكرونني .. ولا أهل هذاك الطرافِ الممدد(٢)

فاذا انتقلنا الى (الحياة السياسية) عجبنا أشد العجب من ادعاء طه والمستشرقين فهل السياسة إلا الحرب والسلام ؟ ! وشعر الجاهليين معظمه فى وصف وتصوير حروبهم المتصلة ، وصراعاتهم الدامية وأيام وقائعهم المشهورة - كما قدمنا لك - كما فى شعر (عنترة) و(عمرو بن كلثوم) و(المهلهل) و(الحارث بن حلزة) و(عبيد بن الأبرص) وغيرهم والأمثلة أكثر وأشهر من أن تذكر ، أما السلام فحسبك منه ما ورد فى معلقة (زهير بن أبى سلمى) حين أشاد بسيدين من رواده هما (هرم بن سنان) و(الحارث بن عوف) اللذان ضحيا بمالهما فى سبيل انهاء الحرب بين قبائل غطفان كقوله :

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما .. تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما أن ندرك السلم واسعا .. بمال ومعروف من القول نسلم ..الخ

وقد مر بك جانب من شعر (الاعشى) فى يوم (ذى قار) الذى حسم نزاعا سياسيا بين العرب والفرس ، فكيف يقال بعد كل هذا إن الشعر الجاهلى لايصور حياة العرب السياسية ؟ ، وننتقل

(١) الفقراء (٢) الأغنياء

الى دعوى طه حسين الأخيرة والعريضة بأن الشعر الجاهلي لايمثل لغة كل الجاهليين لأنه جاء بلغة أهل الشمال العدنانيين فقط دون لغة أهل الجنوب القحطانيين وهي مخالفة تماما في زعم طه والمستشرقين وما دام قد ضاع شعر القحطانيين فقد ضاع كذلك شعر العدنانيين الموجود منه منحول . وردنا على ذلك أن هذا الكلام افتراض خاطئ ومغالطة مكشوفة لأننا لانسلم بأن للجنوب لغة تغاير لغة الشمال ، ولو كان الأمر كذلك لما كان أهل اليمن عربا ولما سميت لغتهم بالعربية ، وانما التغاير كان في اللهجات فحسب ثم حدث التقارب والتوحد الذي حدثناك من قبل عن أسبابه وعواملة

وكلام المستشرقين وطه حسين يتجاهل الهجرات اليمنية الى الشمال الثابتة تاريخيا والصلات الوثيقة السياسية والتجارية والدينية التي ربطت بين الاقليمين وأزالت الفوارق بين اللهجتين وهو تجاهل لايغني من الحق شيئا وكل ما بني على باطل فهو باطل ألا وإن أواخر الجاهلية موصولة التاريخ بأوائل الإسلام وقد وفد على رسول الله من أهل اليمن وفود أسلمت وفي أحدها الشاعر (عمرو بن معد يكرب الزبيدي) ورُوي شعره وشعر غيره من اليمنيين قبل الاسلام وبعده في كتب السيرة ، فلم نر لهم لغة غير لغة العدنانيين كما روت كتب السيرة العطرة أن رسول ملوك حمير وفد على رسول الله بكتاب منهم وأن الرسول رد بكتاب منه لهم ، ولم نسمع أن التراجمة تولوا ترجمة كل من الكتابين الى اللغة الأخرى

فيها بلغة واحدة [١] ، فأين اللغة الجنوبية التي يتخيلها المستشرقون وتابعهم طه حسين ؟!

ولعله قد بان لك الآن وجه الحق في نظرية انتحال الشعر الجاهلي وتجلى لك بطلان دعواها وتهافتها كما صورها المستشرقون وما يدعم ذلك حديثنا الطويل السابق عن مراحل رواية الشعر الجاهلي وتدوينه ، ويمكن اجمال القول في ذلك كله في السطور القليلة التالية :

لا ينكر الباحثون والنقاد المنصفون أمر الانتحال انكارا مطلقا ولكن يضعونه في حجمه الصحيح وهو (حجم ضئيل) لا يقدح في صحة التراث الشعري الجاهلي الكبير ، لأنّ الرواة غير الثقات وعلى رأسهم (حماد) و (خلف) كانوا قلة بجانب الكثرة من الرواة الثقات الأمناء الذين ذكرنا لك أسماءهم ، ومنهم الذين عاصروا هؤلاء المتهمين أو جاءوا بعدهم وتتبعوا مروياتهم ونقدوها وأظهروا ما بها من زيف ، وعلى سبيل المثال كشف (المفضل الضبي) كذب رواية حماد لبعض شعر (الأعشى) في مجلس الخليفة (المهدي العباسي) مما جعل الخليفة من ذلك يحكم بابطال رواية حماد الشعر وأذاع ذلك في الجمهور على الناس [٢] .

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٥ ط دار التراث العربي ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

(٢) البيان والتبيين للجاحظ شرح السندوبي جـ ١ ص ١٤٣ ، ٢٦٣ جـ ٢ ط الاستقامة ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م .

كذلك روى عن (خلف) أنه تاب ونسك فى آخر عمره ، وجمع أهل الأدب فى الكوفة وأعلمهم بكل ما هو منحول من رواياته فأبرأ بذلك ذمته ، ورد الحق إلى نصابه ، (وبعد) فقد فصلنا القول فى هذه القضية تنبيها لك على دسائس المستشرقين وأهدافهم الخبيثة فهم يطعنون فى الأدب الجاهلى لا لذاته ، ولكن لأنه يستشهد به على كثير من معانى (القرآن الكريم) وأساليبه فاذا هدموا ذلك الأدب توصلوا من ذلك إلى الطعن فى كتاب الاسلام العزيز ، أما طه حسين فكان مجرد بوق لهم يردد ما يأفكون - ولعلنا فى فرص أخرى ان شاء الله تعالى نحدثك عن الظروف والملابسات التى جعلته يقع تحت تأثيرهم الشديد لمدة طويلة

وقد لوحظ انه قد اعتدل فى آرائه أخريات حياته ويروى أنه سئل عن تلك الاشياء التى رددها فى كتابه (الأدب الجاهلى) فقال : لقد كان ذلك طيش شباب " ونرجو أن تكون هذه الرواية صادقة وندعو له بالمغفرة لقاء ذلك ، ولقاء ماكتب عن الاسلام والأدب العربى بعد ذلك من صفحات طيبات .

أنماذج من الشعر الجاهلى

(١) فى الغزل : قال (امرؤ القيس) فى معلقته :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلُّلِ .. وإنْ كنت قد أزمعت صرمى فأجملى[1]
أغرَّكِ منى أنَّ حبك قاتلى .. وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعلِ

* * *

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مفاضةٍ .. ترائبها مصقولةٌ كالسَّجنجلِ[2]
تصد وتبدى عن أسيلٍ وتتقى .. بناظرة مِنْ وحش وَجْرَةَ مُطفلِ[3]
وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحشٍ .. اذا هى نصَّته ولا بمعطلِ[4]
وفرعٍ يزين المتنَ أسودَ فاحمٍ .. أثيثٍ كقنو النخلةِ المتعثكلِ[5]
ويُضحى فتيتُ المسكِ فوق فراشها .. نئومُ الضُّحى لم تنتطقْ عن تفضُّلِ[6]
إلى مثلها يرنو الحليمُ صبابةً .. إذا ما اسْبَكَرَّتْ بين درعٍ ومِجْولِ[7]

---

(١) صرمى : قطيعتى (٢) مهفهفة : ضامرة ، الترائب : عظام الصدر ، السجنجل : المرآة (٣) الأسيل : الخد الناعم ، المطفل : ذات الطفل (٤) الجيد : العنق والريم : الظبى الخالص البياض ، نصته : رفعته ، المعطل الخالى من الحلى (٥) الفرع : الشعر التام ، المتن الظهر أثيث : كثير ، والقنو : العذق والمتعثكل : المتداخل بعضه فى بعض أو المتدلى .
(٦) نئوم الضحى ... الخ كناية عن كونها منعمة مخدومة
(٧) اسبكرت : استقامت الدرع والمجول من ثياب النساء .

(٢) فى الوصف ـ وقال امرؤ القيس أيضا يصف فرسه :

وقد أغتدي والطيرُ فى وُكُناَتِها •• بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ (١)
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معـــا •• كجلمودِ صخرٍ حطه السيْلُ من عَلِ (٢)
على الذبْل جياشٍ كأن اهتزامَهُ •• إذا جا شَ فيه حَميُهُ غليُ مِرْجَلِ (٣)

* * *

له أيطَلا ظبيٍ وساقا نعامــةٍ •• وا رخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تتْفُلِ (٤)
ضليعٌ اذا استدبرتَهُ سَدَّفرجـــه •• بضافٍ فويْقَ الأرضِ ليس بأعزلِ (٥)
كأن على المتْنَيْن منه اذاانتَحى •• مَدَاكَ عروسٍ أوصَلاَيَةَ حنْظَلِ (٦)
كأن دماءَ الهاديَاتِ بنحــرِهِ •• عصارةُ حِنَاءٍ بشيبٍ مُرجَّـــلِ (٧)

(٣) الحماسةو الفخر : قال (عمرو بن كلثوم التغلبى) من معلقته

وقد علم القبائلُ مِنْ مَعَـــدٍّ •• إذا قُبَبٌ بأبْطَحِها بُنِينَـــا (٧)
بأنا المطعمون إذا قدرْنَـــا •• وأنا المهلكون إذا ابْتُلِينَـــا (٨)
وأنا المانعون لماأردنـــا •• وأنا النازلون بحيث شينـــا

(١) وكناتها : أعشاشها والمنجرد : الماضى فى سيره ، والأوابد الوحوش والهيكل : الضخم (٢) الجلمود : الحجر الصلب (٣) الذبل : الذبول ، والاهتزام تكسر الصهيل فى صدره والمرجل : القدر
(٤) الايْطل : الخصر ، وارخاء سرحان : نوع من عدو الذئب والتقريب : لون من جرى الثعالب (٥) ضليع : عظيم الأضلاع ، ضاف : أى ذيل طويل ، ليس بأعزل أى ليس بمائل (٦) والمتين : جانبى الظهر ، والمداك : حجر يسحق به الطيب والصلاية : حجر أملس يدق عليه الشىء .
(٧) الأبطح : مسيل الماء الواسع (٨) ابتلينا : اختبرنا فى القتال .

وأنا التاركون إذا سخطنا .. وأنا الآخذون إذا رضينا
وأنا العاصمون إذا أُطعنا .. وأنا العازمون إذا عُصينا
ونشربُ إنْ وردنا الماء صفوًا .. ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا ما المَلْك سام الناس خسفاً .. أبينا أن نُقرّ الذلّ فينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا .. وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيعُ لنا فطاماً .. تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

(٤) المدح : وقال زهير بن أبى سلمى يمدح قومًا :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها .. وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعلُ (١)
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم .. مجالسَ قد يُشفى بأحلامها الجهلُ
على مكثريهم حقُّ مَنْ يعتريهمو .. وعند المقلين السماحةُ والبذلُ (٢)
فما كان من خير أتوه فإنما .. توارثهُ آباءُ آبائهم قبلُ
وهل يُنبِتُ الخطِّىَّ إلاَّ وشيجُهُ ؟ .. وتُغرَسُ إلاَّ فى مَنابتها النَّخلُ ؟(٣)

(٥) الهجاء — وقال بشر بن أبى خازم يهجو أوس بن حارثة الطائى :

ألا أبلغْ بنى لأْمٍ رسولاً .. فبئسَ محلُّ راحلةِ الغريبِ
إذا غدروا لجارٍ أخفروهُ .. كما قُطِعَ الرِّشاءُ مِنَ الذَّنوبِ (٤)

---

(١) أندية : مجالس ، ينتابها : يقصدها (٢) يعتريهم : يغشاهم طالبا معروفهم (٣) الخطى : جزيرة بالبحرين ، والوشيج : شجر تصنع من أغصانه الرماح (٤) اخفروه : غدروا به ، الرشاء : الحبل ، الذنوب الدلو .

وما أوسٌ ولو سودتمـوه .. بمخشيّ العُرام ولا أريـب (١)
أتوعدني بقومك يابن سُعْدَى؟ .. وذلك من ملمات الخطـوب
وحولي من بني أسدٍ عديدٌ .. مُقيمٌ بين شبان وشيب (٢)

(٦) الاعتذار - وقال النابغة الذبياني يعتذر الى النعمان بن المنذر:

فلا لعمرُ الذي مسحتُ كعبتَهُ .. وما هُريق على الأنصاب من جسدِ (٣)
ماقلتُ من سيءٍ مما أتيتَ به .. إذاً فلا رفعتْ سوطي اليّ يدي (٤)
إذاً فعاقبني ربي معاقبةً .. قرتْ بها عينُ من يأتيكَ بالفَنَدِ (٥)

* * *

أُنبئتُ أنّ أبا قابوس أوعدني .. ولا قرارَ على زأرٍ من الاسـدِ (٦)
مهلاً فداءً لك الاقوامُ كلُّهُمُو .. وما أثمِّرُ من مالٍ ومن ولـدِ
لا تقذفنّي بركنٍ لاكفاءَ لـهُ .. وان تأثفكَ الاعداءُ بالرِّفَـدِ (٧)

---

(١) العُرام : الشدة أريب : عاقل . (٢) مقيم : مقيم
(٣) الانصاب : حجارة كانت حول الكعبة تذبح عليها القرابين للاصنام والمراد بالجسد هنا : الدم (٤) إذن فلارفعت سوطي الـيّ يدي : كناية عن الشلل (٥) الفند : الكـذب والقول على الناس (٦) أوعدني : هددني .
(٧) لاترمني بمالا طاقة لي به ، وان أحاط بك أعدائي فكانوا بمنزلة الأثافي من القدر وهي الحجارة التي توضع عليها . والرفد جمع رفده بكسر الراء وهي العصبة .

(٧) الرثاء : وقالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

أعينيَّ جودا ولا تجمُدا .. ألا تبكيان لصخر الندى ؟!
ألا تبكيان الجرئ الجوادَ .. ألا تبكيان الفتى السيِّدا ؟!
رفيعُ العماد طويلُ النجاد .. ساد عشيرتهُ أمْرَدا (١)
إذا القومُ مدُّوا أياديهمو .. إلى المجدِ مدَّ إليه يدا
فنالَ الذى فوق أيديهمو .. من المجدِ ثم مضى مُصْعِدا
ويحْمل للقوم ماغالهمْ .. وإنْ كانَ أصغرهُمْ مولدا
جَمُوعُ الضيوفِ إلى بيتهِ .. يرى أفضلَ الكسبِ أنْ يُحْمَدا
غياثُ العشيرةِ إنْ أمْحَلُوا .. يُهِينُ التلادَ ويحمِى الجَدا (٢)

(٨) الخمريات : وقال (الأعشى) أبو بصير ميمون بن قيس :

أتانِى يؤامرنِى فى الشَّمُو .. لِ ليلاً فقلتُ له غادِهَا (٣)
فرُحْنا نُباكر جدَّ الصَّبُو .. ح قبل النفوسِ وحُسَّادِهَا
فقمنا ولمَّا يَصِحْ ديكُنَا .. إلى خمرةٍ عند جَدَّادِهَا (٤)

---

(١) النجاد : حمالة السيف كناية عن طول القامة ، أمرد صغير السن (لم ينبت شاربه ولا لحيته) (٢) المحل : الجدب ، التلاد : المال العزيز على النفس ، الجدا : المراد : العرض والشرف (٣) الشمول : الخمر ، وغادها : اشتهاصباحا

(٤) جدادها : بائعها .

تَنَخَّلَهَا مِنْ بِكَارِ القِطَافِ .. أُزَيْرِقُ آمِنُ إِكْسَادِهَا (١)
فقلنا له : هذه هاتها .. بأَدْمَاءَ فى حَبْلِ مُقْتَادِهَا (٢)
فقامَ فصبَّ لنا قهوةً .. تُسَكِّنُنَا بعدَ إِرْعَادِهَا (٣)

* * *

كُمَيْتاً تَكَشَّفُ عن حُمْرَةٍ .. إذا صُرِّحَتْ بعد إِزْبَادِهَا
فجالَ علينا بإبريقِه .. فَخَضَّبَ كَفَّاً بِفِرْصَادِهَا (٤)
فَرُحْنَا تَنَعَّمُنَا نَشْوَةٌ .. تَجُورُ بنا بعدَ إِقْصَادِهَا (٥)

(٩) الحكمة ـ وقال (طرفة بن العبد البكرى) من معلقته :

أرى قبرَ نَحَّامٍ بخيلٍ بمالِه .. كقبرِ غَوِيٍّ فى البطالةِ مُفْسِدِ (٦)
ترى جُثْوَتَيْنِ مِنْ ترابٍ عليهما .. صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ (٧)
أرى الموتَ يَعْتَامُ الكرامَ ويصطفى .. عَقِيلَةَ مالِ الفاحشِ المتشددِ (٨)

---

(١) تنخلها اختارها من جيد العنب خمار أزرق العينين (رومى) آمن عليها من الكساد لجودتها (٢) هاتها بأدماء : بعها لنا بناقة لونها مشرب البياض (٣) القهوة الخمر (٤) فجال علينا : اى طاف بالخمر علينا ساق خضب كفيه بلون أحمر (٥) أقصده : أصابه فلم يخطئه يقول ان الخمر بعد أن وصلت إلى هدفها منا أصبحنا منها فى نشوة ولذة غامرة . (٦) النحام : البخيل .
(٧) جثوتين : كومتين . والصفيح المنضد : الحجارة المرصوصة (٨) يعتام : يختار . عقيلة المال : خياره وأفضله . والفاحش المتشدد : البخيل الحريص.

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ .. وما تنقصِ الأيامُ والدهرُ ينفدِ
لعَمْرُكَ إن الموتَ ما أخطأ الفتى .. لكا لطِّولِ المُرخَى وثِنْياهُ في اليدِ (١)
أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ ولا أرى .. بَعِيدًا غدًا ، ما أقربَ اليوم من غدِ (٢)
ستُبْدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً .. ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ (٣)
ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تبعْ لَهُ .. بتاتاً ولم تضربْ له وقتَ موعدِ

---

(١) الطول : الحبل الذى يطول للدابة لترعى فيه ، ثنياه : طرفاه

(٢) أعداد النفوس : بعدد الناس فلكل واحد مينة .

(٣) من لم تزود : من لم تبعثه وتتكلف له الزاد .

خصائص الشعر الجاهلـــــــي

(فى الألفاظ والأساليب) : امتاز الشعر الجاهلى فى هذه الناحيــة بما يأتى :

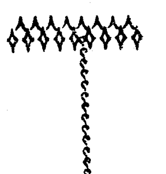
(١) الفصاحة والجمال الفطرى والسلامة من الركاكة واللحن والدخيل .
(٢) القوة والمتانة والسلامة من التكلف والصنعـــــة .
(٣) خشونة بعض الألفاظ المشاكلة لخشونة البيئـة .
(٤) قلة المجاز والقصد إلى التعبير الحقيقـــــى .
(٥) كثرة المترادف .
(٦) الميل للإيجاز (فى المعانى والخيال) وامتاز شعـــــــــر الجاهليين فى هذا الجانب بالآتى :

(١) القرب والوضوح وعدم التعمق .
(٢) الدقة فى تصوير البيئة وحياة البادية .
(٣) الصدق فى التعبير عما فى النفـــــس .
(٤) البعد عن الغلو والمبالغة والسلامة من التعقيد والتقليد
(٥) جمال التصوير وإبداع التشبية من غير إغراق ولا تفنن .
(٦) ومن عيوب المعانى عندهم (الاقتضاب) وهو عدم ترتيب الأفكار بحيث يدخل الشاعر من معنى إلى معنى دون تمهيد غالبا [1] مما نتج عنه ضعف التماسك بين معانى القصيـــدة

(١) أو بتمهيد موجز مثل : دع ذا ...

وعدم إحكام ترابطها .

(فى بناء القصيدة) بناء القصيدة على وزن واحد وقافية واحدة مما يجعل منها وحدة موسيقية وبدوءها بالغزل وذكر المحبوبة وديارها وبكاء أطلال أهلها وربما أتبعوا ذلك بذكر الرحلة فى الصحراء ووصف الناقة ووحش الفلاة وتعد هذه (مقدمة) تقليدية توارثها الشعراء بعد ذلك فى العصور التالية .



الباب الرابع (النثر الجاهلي)

بعد أنْ بسطْنا لك القول - بحمد الله - في الشعر الجاهلي وقضاياه ، آن لنا أن نتناول النثر الجاهلي ولكن في إيجاز ألجأتنا اليه الظروف - هذا إلى أن الأدب الجاهلي بطبيعته يستأثر فيه الشعر بالنصيب الأعظم والكم الأكبر - فنقول وبالله تعالى التوفيق ان (الطابع العام) للنثر الجاهلي هو القلة إذا قيس بالشعر ومن أهم أسباب ذلك :

(١) أمية العرب وأن النثر الفني يحتاج لمستوى ثقافي لم يتهيأ للجاهليين .

(٢) أن النثر أصعب حفظا من الشعر وأقل بقاء في ذاكرة الرواة .

(٣) فقد كثير منه بفقد حفاظه ورواته في الحروب الكثيرة التي خاضها العرب في الجاهلية وصدر الاسلام .

(فنونه) : الخطب ، الحكم والأمثال والوصايا والمحاورات والقصص ، سجع الكهان ، واليك كلمة عن أهم هذه الفنون

(فالخطابة) : وهي فن مخاطبة الجماهير والتأثير فيهم وتعتمد على الارتجال أي القدرة على الإنشاء الوقتي وعلى الفصاحة وطلاقة اللسان ، وقد ازدهرت في العصر الجاهلي حتى نافست الشعر

وكاد الخطيب يتفوق على الشاعر فى المنزلة ، وذلك لوفرة دواعيها وسمو الدور الذى يؤديه فى حياتهم ومن دواعى ازدهارها :

(١) جوّ الحرية الذى كان يعيش فيه المجتمع العربى والذى كان يتيح لكل فرد أن يقول مايشاء .

(٢) طلاقة ألسنتهم وفصاحتهم بالفطرة والسليقة ، وتكريمهم الخطيب إذا أجاد .

(٣) حاجتهم إليها للاثارة وتهييج المشاعر لكثرة الحروب والمنازعات بين القبائل .

(٤) حاجتهم إليها عند المفاخرة والتباهى بالشرف والحسب وعند الوفود على ملك عظيم (١) أو الإصهار (٢) الى قبيل كريم أو السعى للصلح بعد حرب ضروس .

(ومن أشهر خطبائهم) قصىّ بن كلاب ، وحفيده هاشم ابن عبد مناف ، وعبد المطلب بن هاشم ، وذو الأصبع العدوانى وقس بن ساعدة الإيادى خطيب سوق عكاظ ، وأكثم بن صيفى خطيب العرب عند كسرى

---

(١) كملوك اليمن والحيرة والغساسنة للتهنئة أو طلب العفو أو الاستنصار

(٢) التزوج .

وعمرو بن معدى كرب الزبيدى [1] - و (الوصايا) قريبة الشبه بالخطب الا أنها أضيق حدودا ، لأنها لا تعدو وصية شيخ لعشيرته ، أو أب أو أم لأولادهما ، وهى تصدر عن الحكيم المجرب فى مناسبات خاصة كسفر أو زواج أو دنو أجل الموصى واليك أمثلة للخطب والوصايا .

(١) خطب (هانىء بن قبيصة الشيبانى) يحرض قومه بكرا على مجالدة الفرس فى يوم ذى قار : " يامعشر بكر ، هالك معذور خيرٌ من ناجٍ فَرُور ، إن الحذرَ لاينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، الطعن فى ثغر النحور ، أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد "

(٢) وخطب (أبو طالب بن عبد المطلب) طالبا يد السيدة (خديجة) لابن أخيه محمد (عليه السلام) : " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمدًا ابن عبد الله ابنَ أخى مَنْ لايوازن به فتًى من قريشٍ الا رجحَ عليه برًّا و فضلا وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإنْ كان فى المال قُلّ

---

(١) وهو شاعر مشهور أيضا .

فانما المال ظلٌّ زائلٌ ، وعاريةٌ مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلدٍ رغبةٌ ، ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتم من الصداقِ فعلىَّ "

(٣) وأوصى (ذو الاصبع العدوانى) ابنه (أسيدا) فقال :

" يابنى ، إن أباك فنى وهو حىّ ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إنْ حفظتَه بلغتَ فى قومك مابلغتُه ، فاحفظ عنى ، ألِنْ جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسُط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثرْ عليهم بشىءٍ يسوّدوك ، وأكرِمْ صغارَهم كما تكرِمُ كبارَهُمْ ، يكرمُك كبارُهمْ ، ويكبر على مودتك صغارُهمْ واسمحْ بمالِكَ ، واحمِ حريمَك وأعززْ جارَك ، وأعِنْ من استعانَ بك وأكرِمْ ضَيْفك ، وصُنْ وجْهَكَ عن مسألةِ أحدٍ شيئا ، فبذلك يتمُّ سؤددك " .

(الحكمة والمثل) : وكلا هما قول موجز اللفظ صائب المعنى محكم الصياغة بارع التصوير ، يشتمل على تجربة ناقمة أو موعظة بالغة ، ساقه حكماء العرب فى المناسبات المختلفة فذاع وحُفِظ وخلد مع الأيام لنفاسته وشرف معناه وجمال مغزاه .

وترد الحكمة كثيرا فى خطبهم كما مربك فى خطبة (هانىء بن قبيصة الشيبانى) وقد تأتى على ألسنة شعرائهم كما مربك فى

في شعر (طرفة) وكما جاء في معلقة (زهير بن أبي سلمى) من مثل قوله :

ومَنْ لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحه .. يهدَّمْ ومَنْ لا يتق الظلم يُظْلَمِ
ومهما تكنْ عند امرئ من خليقةٍ .. وإنْ خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ .الخ

وينفرد المثل عن الحكمة بأنه يشير إلى حادثة معينة قديمة كانت سبب قوله لأول مرة ، وتسمى (مورد المثل) ثم يستعمل بعد ذلك فيما يشبهها من الأحداث الجديدة ـ دون أي تغيير في ألفاظه ـ ويسمى الحادث الجديد المشابه (مضرب المثل) وقد امتاز العرب بكثرة الأمثال يرسلونها عفو الخاطر في كل مناسبة فتدور على الألسنة ، وتبقى على الزمان ، وقد ألف علماء الأدب كتبا في الأمثال جاهليها وإسلاميها فجمعوها وشرحوها مثل (مجمع الأمثال) للإمام الميداني وقد اشتمل على ستة آلاف مثل ، وكتاب الأمثال لأبي هلال العسكري وكتاب الأمثال للزمخشري هذا عدا ورودها في كتب الأدب العامة كالبيان والأمالي والعمدة وبلوغ الأرب ... الخ .

(ومن أمثلة الحكم) : إنّ قول الحق لم يدعْ لي صديقا ـ لم يضعْ من مالك ما وعظك ـ رُبَّ أكلةٍ منعتْ أكلات ـ آخرُ الدواء الكيّ . مصارعُ الرجالِ تحتَ بروقِ الطمعِ ـ من سَلَكَ الجَدَدَ (١) أمِنَ العِثارِ (٢)

(١) الطريق الممهد (٢) الانكباب على الوجه والسقوط على الأرض .

كَلْمُ اللسانِ أَنْكَى مِنْ كَلْمِ السِّنانِ (١) - العِتابُ قَبْلَ العِقاب - أَوَّلُ الحَزْمِ المشورة - خيرُ الغِنى القناعة - أنجزَ حُرٌّ ما وَعَدَ - بعضُ الشرِّ أهونُ مِنْ بَعْض .

(أما الامثال) فمنها ما كان مورده حادثة (حقيقية) ، ومنها ما كان مورده حادثة فرضية (خيالية) فمن النوع الأول : "إنَّ العصا مِنَ العُصَيَّة" ويُضْرَبُ للشيء يتبع أصله ، "إنَّ العَوانَ لاتُعَلَّمُ الخِمْرة (٢)" ويضرب للانسان العالم بالأمر المجرب له ، "أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلة" (٣) ويضرب لمن يَظْلم من وجهين ، "إنَّ المُنْبَتَّ لا أرضًا قطعَ ولا ظَهرًا أبقَى (٤)" يضرب لمن يبالغ فى طلب الشيء بإفراط حتى يعجز عنه فيضيعه ، "أنْ تَرِدَ الماءَ بماءٍ أكْيَس" يضرب فى عدم التفريط فيما تملك اتكالا على مالا تملك "الحديثُ ذو شُجُون (٥)" يُضْرَبُ فى الحديث يتذكر به غيره ، "ما يَوْمُ حليمةَ بِسِرٍّ" يضرب لكل أمر متعارف مشهور ، "إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ" يضرب فى التساهل مع القريب والصديق . فكل مثل مما سبق له مناسبة حقيقية أو حادثة واقعية قيل بسببها وعلى سبيل المثال - ولا نطيل عليك

---

(١) جرح الكلام أشد من جرح السلاح ، (٢) العوان : التى سبق لها زواج والخمرة : كيفية لبس الخمار (٣) الحشف ردىء التمر
(٤) المنبت : المنقطع عن أصحابه فى السفر بسبب اجهاد دابته ، الظهر : الدابة التى تركب كالناقة والفرس . (٥) شجون : طرق .

بذكر الجميع [1]- المثل : " مايومُ حليمةَ بِسرٍّ " سببه أن الحارث بن أبى شمر الغسانى كان فى حرب مع خصم له من المناذرة فأراد أن يحمس جنوده للقتال فأخرج ابنته (حليمة) ومعها طيب وأمرها بأن تطيب هؤلاء الجنود ، وكان ذلك سببا فى انتصارهم فعرف هذا اليوم واشتهر وضرب به المثل فى كل أمر مشهور ، (ومن النوع الثانى) الذى بُنىَ مورده على حادثة فرضية : المثل : " كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ " ويضرب لمن لايفى بعهده وهو على لسان (حية) ، والمثل : " فِى بيْتِهِ يُؤْتَى الحَكَم " ويضرب لصاحب الحاجة عليه أن يسعى الى من عنده قضاؤها ، وهو على لسان (ضب [2]) ، وأصل المثل الأول على ماحكته العرب أن أخوين أجدبت أرضهما ،وكان بالقرب منها واد خصيب فيه حية تحميه فهبط أحدهما الوادى فنهشته الحية فقتلته ،فجاء أخوه ليثأر له ، ففاوضته الحية وصالحته على أن يترك ثأره عندها على أن تدعه يرعى فى واديها وتعطيه كل يوم دينارا ، فمكثا على ذلك مدة ، ثم ذكر أخاه فأخذ فأسا وتبع الحية وضربها فأخطأها و أثرت الفأس فى جحرها ، فندم وخاف شرها فقال لها : هل لك فى تجديد العهد ؟ فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟!

---

(١) راجع أمثال العرب للميدانى

(٢) دابة صحراوية صغيرة .

خصائص النثر الجاهلي

إذا تأملنا النثر الجاهلي من خطب ووصايا وحكم وأمثال ظهرت لنا الخصائص الاتية :

(١) فصاحته التامة ، وبلاغته الفائقة ، فأسلوبه برئ من اللحن والضعف والأعجمي ، لسلامة فطرتهم ، ونقاء بيئتهم وقوة موهبتهم اللغوية .

(٢) الميل الى الإيجاز مع التركيز العجيب واحتواء المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة لاسيما في الحكمة والمثل .

(٣) إيثار الاستعمال الحقيقي للكلام وقلة استعمال المجاز .

(٤) عدم التكلف والجري على مقتضى الفطرة ، فامتاز كلامهم بوضوح اللفظ والمعنى (وما يُعَدُّ من ألفاظهم غريبا علينا الآن فلبعد العهد ، وكان في أيامهم واضحا مألوفا) .

(٥) ضعف الربط بين الجمل ، وسرعة الانتقال من معنى إلى معنى في الخطبة الواحدة أو الوصية الواحدة .

(٦) الميل إلى إرسال الكلام من غير سجع ، وإذا سجعوا جاء سجعهم عفو الخاطر غير متكلف .

(٧) غلبة السجع المتكلف على (نثر الكهان) خاصة لحاجتهم إليه في التهويل على الناس ، وإشاعة جو من الغموض والرهبة

فهرس الموضوعات للحلقه الاولى (عن العصر الجاهلى)